الفصل الأول

النشأة

١

فى العصرين الجاهلى والإسلامى

بلغ العرب فى الجاهلية مرتبة رفيعة من البلاغة والبيان ، وقد صوّر الذكر الحكيم ذلك فى غير موضع منه من مثل : (الرحمن علَّم القرآن خلق الإنسان علمه البيان) (وإن يقولوا تَسْمَعْ لقولهم) (ومن الناس من يُعجبك قوله فى الحياة الدنيا) كما صوَّر شدة عارضتهم وقوتهم فى الحجاج والجدل بمثل : (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حِداد) (ما ضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خَصِمون). ومن أكبر الدلالة على ماحذقوه من حسن البيان أنْ كانت معجزة الرسول الكريم وحجَّته القاطعة لهم أنْ دعا أقصاهم وأدناهم إلى معارضة القرآن فى بلاغته الباهرة . وهى دعوة تدل فى وضوح على ما أوتوه من اللَّسَن والفصاحة والقدرة على حَوْك الكلام ، كما تدل على بصرهم بتمييز أقدار الألفاظ والمعانى وتبيُّن ما يجرى فيها من جودة الإفهام وبلاغة التعبير . ويُرْوَى أن الوليد بن المغيرة أحد خصوم الرسول الألِدَّاء استمع إليه وهو يتلو بعض آى القرآن ، فقال : « والله لقد سمعت من محمد كلامًا ، ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطُلاوة ، وإن أعلاه لمُثْمر ، وإن أسفله لمُغْدِق »[١] .

وفى كلام الوليد ما يُظْهرنا على أنهم كانوا يُعْربون عن إعجابهم ببلاغة القول فى تصاوير بيانية ، ويعرض علينا الجاحظ فى بعض فصوله بكتابه « البيان والتبيين » كيف كانوا يَصِفون كلامهم فى شعرهم وخطابتهم ببرود العَصْب الموشَّاة وبالحلل والديباج والوَشْى وأشباه ذلك[٢] . وكثيراً ما وصفوا خطباءهم بأنهم مصاقع لُسْن ،

---

(١) انظر تفسير الزمخشرى فى سورة المدثر . مغدق : كثير المياه .

(٢) البيان والتبيين (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/٢٢٢ .

obeikandi.com

كما وصفوهم باللوذعية والرمى بالكلام العضب القاطع ، وفى أمثالهم جرح اللسان كجرح اليد . ويروى أن الرسول الكريم استمع إلى بعض خطبائهم ، فقال : إن من البيان لسحراً[١] .

ونفس أدبهم الذى خلفوه يحمل فى تضاعيفه ما يصور فصاحة منطقهم ، وكيف كانوا يتأتون للكلام ، حتى يبلغوا منه كل ما كانوا يريدون من استمالة القلوب والأسماع ، وأحس بذلك الجاحظ من قديم فقال : « لم نرهم يستعملون مثل تدبيرهم فى طوال القصائد وفى صنعة طوال الخطب . وكانوا إذا احتاجوا إلى الرأى فى معاظم التدبير ومهمات الأمور ميثوا (ذللوا) الكلام فى صدورهم وقيدوه على أنفسهم ، فإذا قومه الثقاف وأدخل الكير وقام على الخلاص أبرزوه محككا منقحا ومصفى من الأدناس مهذبا »[٢] . فبلغاؤهم من الخطباء والشعراء لم يكونوا يتقبلون كل ما يرد على خواطرهم ، بل ما يزالون ينقحون ويجودون حتى يظفروا بأعمال جيدة ، وهى أعمال كانوا يجيلون فيها الفكرة ، ويعاودون النظر ، متكلفين جهوداً شاقة فى التماس المعنى المصيب تارة والتماس اللفظ المتخير تارة ثانية ، يقودهم فى ذلك بصر محكم يميزون به المعانى والألفاظ بعضها من بعض ، بحيث يصونون كلامهم عما قد يفسده أو يهجنه . وقد وقف الجاحظ فى بيانه مراراً ينوه بما كانوا يرسلونه فى خطابتهم وكلامهم من أسجاع محكمة الرصف ، وكرر القول فى أن من شعرائهم « من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا (كاملا) وزمنا طويلا يردد فيها نظره ، ويجيل فيها عقله ويقلب فيها رأيه ، اتهاما لعقله ، وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله زماما على رأيه ، ورأيه عياراً على شعره . . وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات ، ليصير قائلها فحلا خنذيذاً وشاعراً مفلقا »[٣] .

وقد لقبوا شعراءهم ألقابا تدل على مدى إحسانهم فى رأيهم مثل المهلهل والمرقش والمثقب والمنخل والمتنخل والأفوه والنابغة ، وكأنما كان هناك ذوق عام دفع الشعراء ومن وراءهم من الخطباء إلى تحبير كلامهم وتجويده ، ومما لا شك فيه أن أسواقهم الكبيرة هى التى عملت على نشأة هذا الذوق ، وخاصة سوق عكاظ

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٤٩ .
(٢) البيان والتبيين ٢/١٤ .
(٣) البيان والتبيين ٢/٩ .

بجوار مكة ، إذ كان الخطباء والشعراء يتبارون فيها ، وكل يريد أن يحوز قصب السبق لدى سامعيه دون أقرانه . ويظهر أنه كان لقريش فى ذلك الحُكْمُ الذى لا يُرَدُّ ، ففى الأغانى « أن العرب كانت تعرض أشعارها على قريش ، فما قبلوه منها كان مقبولا ، وما ردُّوه منها كان مردودا ، فقدم عليهم علقمة بن عبدة التميمى ، فأنشدهم قصيدته : (هل ما علمتَ وما استودعتَ مكتوم) فقالوا : هذا سِمْط الدهر ، ثم عاد إليهم العام القابل ، فأنشدهم قصيدته : (طحابك قلبٌ فى الحسان طَرُوبُ) فقالوا : هاتان سِمْطا الدهر »[١] . ويبدو أن من الشعراء النابهين من كان يقوم فى هذه السوق مقام القاضى الذى لا تُدْفَعُ حكومته ، ففى أخبار النابغة الذُّبْيانى أن الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه ، فمن نوَّه به طارت شهرته فى الآفاق ، وكان فى أثناء ذلك يُبْدى بعض الملاحظات على معانى الشعراء وأساليبهم ، ويُقال إنه فضَّل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضَّل الخنساء على بنات جنسها . وثار حسان عليه ، وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها ، فقال له النابغة حيث تقول ماذا ؟ قال : حيث أقول :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَى ... وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا
ولَدْنا بنى العَنْقاء وابْنَىْ محرِّقٍ ... فأَكرمْ بنا خالاً وأَكرمْ بنا ابْنَمَا[٢]

فقال له النابغة : « إنك لشاعر لولا أنك قلَّلتَ عدد جفانك وفخرتَ بمن ولدتَ ولم تفخر بمن ولدك . وفى رواية أخرى : فقال له : إنك قُلْتَ الجفنات فقلَّلت العدد ، ولو قلت الجِفان لكان أكثر ، وقلت : يلمعن فى الضحى ، ولو قلت : يبرقن بالدُّجى لكان أبلغ فى المديح لأن الضيف بالليل أكثر طُروقا ، وقلت : يقطرن من نجدة دما ، فدللتَ على قلة القتل ، ولو قلت : يجرين لكان أكثر ، لانصباب الدم ، وفخرتَ بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك . فقام حسان منكسرا منقطعا »[٣] .

---

(١) أغانى (طبعة الساسى) ١١٢/٢١ .

(٢) العنقاء : ثعلبة بن عمرو مزيقياء أحد أجداد الأزد القدماء فى اليمن ، ومعروف أن الخزرج قبيلة حسان أزدية . ويريد بالمحرق جبلة بن الحارث أمير الغساسنة فى الشام لأوائل القرن السادس ، وهم أيضاً من الأزد .

(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٣٤٠/٩ .

[وفى تعليقات النابغة وملاحظاته ما يدل على أن شعراء الجاهلية كان يراجع بعضهم بعضاً وأنهم كانوا يبدون فى ثنايا مراجعاتهم بعض الآراء فى المعانى والألفاظ] ويروى عن طرفة بن العبْد أنه لاحظ على المتلمس أو المسيب بن علَس أنه وصف فى بعض شعره البعير بوصف خاص بالنَّاقة، فقال ساخراً به : استنوق الجمل[١] . وينبغى أن نقف قليلا عند مدرسة زهير بن أبى سُلْمى ، وهى مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته ، وهى تبدأ بأوس بن حَجر التميمى الذى تلقن عنه الشعر زهير المُزَنى ، ولقَّنه بدوره لابنه كعب وللحُطَيْئة ، ولقَّنه الحطيئة هدبة بن الخَشْرم العُذْرى ، ولقنه هدبة جميلَ بن مَعْمَر ، وعنه تلقنه كثيِّر[٢] . وهى مدرسة لم تكن تمضى فى نظم الشعر عفْوَ الخاطر ، بل كانت تتأنى فيما تنظم منه ، وتنظر فيه وتعيد النظر مهذبة منقحة ، وقد وصف الأصمعى قُطْبَيْها زهيراً والحطيئة فقال : « زهير بن أبى سلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر » وكذلك كل من جوَّد فى جميع شعره ووقف عند كل بيت قاله وأعاد فيه النظر حتى يُخْرِج أبيات القصيدة كلها مستوية فى الجودة[٣] . وهى جودة كانت تقوم على التصفية والترويق ، فالشاعر من أمثال زهير والحطيئة حين ينظم قصيدة يظل يتأمل فى أعطافها ، فيحذف — أو يزيد — بيتاً ، ويصْلح عبارة هنا أو هناك ، ويصفى الأبيات من شوائبها ، ويخلص القوافى من أدْرانها تخليصاً تاماً . وفى الأغانى : « كان الحطيئة راوية زهير وآل زهير ، ويُرْوَى أنه أتى كعبا فقال له : قد علمتَ روايتى لكم أهلَ البيت وانقطاعى إليكم ، وقد ذهب الفحول غيرى وغيرك ، فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسك ، وتضعنى موضعاً بعدك — وقال أبو عبيدة : تبدأ بنفسك فيه ثم تثنِّى بى — فإن الناس لأشعاركم أرْوَى وإليها أسرع ، فقال كعب[٤] :

فمَنْ للقوافى شَانَها مَنْ يحوكها ... إذا ما ثَوَى كَعْبٌ وفوَّزَ جَرْوَلُ[٥]

كفيتُك لا تلقى من الناس واحـداً ... تنخَّل منها مِثْلَمَا نتنخَّلُ[٦]

نثقِّفها حتى تلين مُتُونُهـا ... فيَقْصُرُ عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ[٧]

---

(١) أغانى (طبع الساسى) ٢١/١٣٢ .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٨/٩١ .

(٣) البيان والتبيين ٢/١٣ .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٢/١٦٥ .

(٥) ثوى ، فوز : هلك . جرول : الحطيئة

(٦) تنخل : انتخب واختار .

(٧) نثقفها : نقومها .

وهو يزعم أنه هو والحطيئة يتفوقان على كل من عداهما فى تقويم أشعارهما وأخذها بكل ما يمكن من تنقيح وتعديل ، حتى تغدو أساليبها مستوية متناسقة أشد ما يكون الاستواء والتناسق . وهما جميعاً من مدرسة زهير ، تلك المدرسة التى كان أصحابها - كما أسلفنا - رواة ، والتى كان يتخرج بعضهم فيها على بعض ، فالتلميذ يلزم أستاذاً له ، يأخذه برواية شعره ومعرفة طريقته ، وما يزال به حتى تتفتح مواهبه ويسيل الشعر على لسانه ، وحينئذ يورد عليه بعض ملاحظاته على ما ينظم ، وقد يصْلح له بعض نظمه .

وإنما أطلنا فى تصوير ما قدمناه عن العصر الجاهلى لندل على أن الشعراء حينئذ كانوا يقفون عند اختيار الألفاظ والمعانى والصور ، وكانوا يسوقون أحياناً ملاحظات لا ريب فى أنها أصل الملاحظات البيانية فى بلاغتنا العربية ، ومن يتصفح أشعارهم يجدها تزخر بالتشبيهات والاستعارات ، وتتناثر فيها من حين إلى حين ألوان من المقابلات والجناسات ، مما يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعْنَون عناية واسعة بإحسان الكلام والتفنن فى معارضه البليغة .

وأخذت تنمو هذه العناية بعد ظهور الإسلام ، بفضل ما نهج القرآن ورسوله الكريم من طرق الفصاحة والبلاغة ، أما القرآن فكانت آياته تتلى فى آناء الليل وأطراف النهار ، وأما الرسول فكان حديثه يذيع على كل لسان ، وكانت خطبه ملء الصدور والقلوب ، وفيه يقول الجاحظ إنه « لم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفّ بالعصمة .. وهو الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة ، وغشّاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ، وبين حُسْن الإفهام وقلة عدد الكلام ، مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته . . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعمّ نفعاً ولا أقصد لفظاً ولا أعدل وزنا ولا أجمل مذهباً ولا أكرم مطلباً ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجا ولا أفصح معنى ولا أبين فى فحوى من كلامه صلى الله عليه وسلم »[1] وفى أخبار الرسول ما يدل على أنه كان يُعْنَى أشد العناية بتخير لفظه ، فقد أثِر عنه أنه كان يقول : « لا يقولنّ أحدكم خَبُثَتْ

---

(١) البيان والتبيين ٢/١٧ .

نفسى ، ولكن ليقل : لَقِسَتْ نفسى » كراهية أن يضيف المسلم الخُبْثَ إلى نفسه(١) . وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعلى خطباء مفوَّهين ، وكانوا يستضيئون فى خطابتهم بخطابة الرسول الكريم وآى الذكر الحكيم . وربما كان مما يدل على شيوع دقة الحس حينئذ ما يُرْوَى عن أبي بكر من أنه عرض لرجل معه ثوبٌ ، فقال له : أتبيع الثوب ؟ فأجابه : لا ، عافاك الله . وتأذّى أبو بكر مما يوهمه ظاهر اللفظ ، إذ قد يُظَنّ أن النفى مسلَّط على الدعاء ، فقال له : « لقد علمتم لو كنتم تعلمون ، قُلْ : لا وعافاك الله »(٢) . ويضرب الرواة مثلا لبلاغة عمر أنه كان يستطيع أن يُخْرِج الضاد من أى شِدْقيه شاء(٣) ، وكان على لا يبارَى فصاحة وبلاغة .

وإذا تحولنا إلى عصر بنى أمية وجدنا الخطابة بجميع ألوانها من سياسية وحفلية ووعظية تزدهر ازدهاراً عظيما ، وفى كل لون من هذه الألوان يشتهر غير خطيب ، أما فى السياسة فيشتهر من ولاة بنى أمية زياد والحجاج ، وفى زياد يقول الشَّعْبى : « ما سمعت متكلّما على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفًا من أن يسىء إلا زياداً فإنه كلما أكثر كان أجود كلاما »(٤) وفى الحجاج يقول مالك ابن دينار : « ربما سمعت الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع فى نفسى أنهم يظلمونه وأنه صادق ، لبيانه وحسن تخلصه بالحجج »(٥) . ومن خطباء الشيعة زيد بن الحسين بن على وكان لَسِنًا جَدِلاً يَجذب الناس بحلاوة لسانه وسهولة منطقه وعذوبته(٦) . ومن خطباء المحافل سَحْبان وائل وقد خطب بين يدى معاوية بخطبة باهرة سُميت من حسنها باسم الشوهاء(٧) ، ومثله صُحار العَبْدى الذى راع معاوية بخطابته ، فسأله : ما تَعُدُّون البلاغة فيكم ؟ قال : الإيجاز ، فقال له معاوية : وما الإيجاز ؟ قال صُحار : أن تجيب

---

(١) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ١/٣٣٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٦١ .

(٣) البيان والتبيين ١/٦٢ .

(٤) البيان والتبيين ٢/٦٥ .

(٥) البيان والتبيين ١/٣٩٤ ، ٢/٢٦٨ .

(٦) البيان والتبيين ١/٥٨ .

(٧) البيان والتبيين ١/٣٤٨ .

فلا تُبْطئُ وتقول فلا تُخْطئ(١) . أما خطباء الوعظ فقد بلغوا الغاية من روعة البيان وفى مقدمتهم غَيْلان الدمشقى والحسن البصرى وواصل بن عطاء ، ويقول الجاحظ إن أدباء العصر العباسى كانوا يتحفَّظون كلام الحسن وغيلان ، حتى يبلغوا ما يريدون من المهارة البيانية(٢) ، [ويُشيد ببلاغة واصل مُدللاً عليها بإسقاطه الراء من كلامه لِلُثْغَته فيها ، مع ما انتظم له من الطلاوة والجزالة(٣)]. ونرى الجاحظ فى غير موضع من بيانه يسوق ملاحظات الناس على الخطباء ، كما يسوق ملاحظات الخطباء أنفسهم ، وخاصة أصحاب الوعظ منهم ، إذ كان تلاميذهم يتحلَّقون حولهم ، وكانوا يدربونهم على إحسان الأداء وقَرْع الأدلة بالأدلة الناصعة . ومن طريف ما ساقه من ملاحظات الناس ما رواه الرواة عن عمران بن حِطَّان إذ قال : « إن أول خطبة خَطَبْتُها عند زياد — أو عند ابن زياد — فأعْجِبَ بها الناس ، وشهدها عمي وأبي ، ثم إنى مررتُ ببعض المجالس ، فسمعت رجلا يقول لبعضهم : هذا الفتى أخطبُ العربِ لو كان فى خطبته شيءٌ من القرآن »(٤) . ومما ساقه من كلام الوعَّاظ . قول شَبيب بن شَيْبة : « الناس موكَّلون بتفضيل جودة الابتداء وبمدح صاحبه وأنا موكل بتفضيل جودة القطع وبمدح صاحبه ، وحظ جودة القافية ، وإن كانت كلمة واحدة ، أرفعُ من حظ سائر البيت »(٥) . ويسوق الجاحظ حواراً طريفًا بين أبى الأسود الدُّؤلى وغلام كان يتقعَّر فى كلامه ، وقد تلوَّمه أبو الأسود تلوُّمًا عنيفًا لاستخدامه ألفاظًا مفرطة فى الغرابة(٦) .

[والحق أن الملاحظات البيانية كثرت فى هذا العصر ، وهى كثرة عملتْ فيها بواعث كثيرة ، فقد تحضر العرب واستقروا فى المدن والأمصار ، ورقيت حياتهم العقلية ، وأخذوا يتجادلون فى جميع شئونهم السياسية والعقيدية ، فكان هناك الخوارج والشيعة والزبيريون والأمويون ، وكان هناك المرجئة والجبرية والقدرية والمعتزلة ، ونما العقل العربى نموًّا واسعًا ، فكان طبيعيًّا أن ينمو النظر فى بلاغة الكلام وأن تكثر الملاحظات المتصلة بحس البيان ، لا فى مجال الخطابة والخطباء فحسب ،

---

(١) البيان والتبيين ١/٩٦ .
(٢) البيان والتبيين ١/٢٩٥ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٤ .
(٤) البيان والتبيين ١/١١٨ .
(٥) البيان والتبيين ١/١١٢ .
(٦) البيان والتبيين ١/٣٧٩ .

بل أيضًا فى مجال الشعر والشعراء ، بل لعل المجال الثانى كان أكثر نشاطًا لتعلق الشعراء بالمديح وتنافسهم فيه ، وقد فتح لهم الخلفاء والولاة والقواد والأجواد أبوابهم ، فوفدوا من كل فَجّ ، وكانوا يجعلون جوائز كل منهم بقدر شعره وبراعته فيه ، فاشتد التنافس بينهم ، وهيأ من بعض الوجوه لاندلاع الهجاء بين فريق منهم . والمهم أنه هيأ لكى يتخير كلٌّ منهم معانيه وألفاظه بحيث تَصْغَى لها القلوب والأسماع ، وتساق إليه الجوائز الضخمة . وأخذ الشعراء — بحكم استقرارهم فى المدن — يَلْقَى بعضهم بعضًا فى المساجد والأندية والأسواق وعلى أبواب مَنْ يمدحونهم وفى حضرتهم ، فكثرت المحاورات — بينهم من جهة وبينهم وبين سامعيهم من جهة ثانية — فى براعاتهم وفى بعض معانيهم وأساليبهم .

وقامت فى هذا العصر سوق المِرْبَد فى البصرة وسوق الكُناسة فى الكوفة مقام سوق عكاظ فى الجاهلية ، بل لقد تحولا إلى ما يشبه مسرحين كبيرين ، يغدو عليهما شعراء البلدتين ومن يفد عليهما من البادية ، لينشدوا الناس خير ما صاغوه من أشعار . واستطاع جرير والفرزدق أن يتطورا فى سوق المربد بفن الهجاء القديم ، فإذا هو يصبح مناظرة واسعة فى حقائق عشيرتى الشاعرين وحقائق قيس وتميم ، و يحاكيهما كثير من الشعراء ، ويتجمع لهم الناس يصفقون كلما مر بهم بيت نافذ الطعنة ويهتفون ويصيحون[1] . ومن يقرأ أخبار جرير الذى كان يهاجيه — فيما يُقال — ثلاثةٌ وأربعون شاعراً يجد أن الدافع إلى اشتباكه مع بعض الشعراء يعود إلى تقبيحهم لبعض قوله وإلى تقبيحه لبعض أقوالهم وبيان أنها تخرج على قواعد التعبير الجيد ، ونسوق لذلك مثالا واحداً هو دافعُ تهاجيه مع عمر بن لجأ التَّيْمى ، فقد سمعه جرير ينشد فى أرجوزة له يصف إبله :

قد وردتْ قبل إنَى ضَحائها وتَفرِسُ الحيَّاتِ فى خِرْشائها[2]

جرَّ العجوزِ الثِّنْىَ من رِدائها

فتعرَّض له يقول : كان أولى بك أن تقول : « جرَّ العروس » لا جر العجوز

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/١٥٢ و (طبع الساسى) ١٩/١٥٣ .

(٢) إنى : وقت ، من أنى يأنى إذا حان وقته. ضحاء الإبل : مرعاها فى الضحى. تفرس : تحطم وتدق . الخرشاء : جلد الحيات .

التى تتساقط خوراً وضعفا ، واستشاط عمر غضبًا ، فهجاه ، واحتدم بينهما الهجاء[١] . ومدار ملاحظة جرير على انتخاب الكلمة الملائمة للسياق . وكان كثيراً ما يتعرض بعض السامعين للشعراء وهم ينشدون ، فيبدون بعض ملاحظاتهم البيانية والتعبيرية ، من ذلك ما يُقال من أن ذا الرمة كان ينشد بسوق الكُناسة فى الكوفة إحدى قصائده ، فلما انتهى منها إلى قوله :

إذا غَيَّر النَّأْىُ المحبِّين لم يكد رَسِيسُ الهوى من حبِّ ميَّة يبرحُ[٢]

صاح به ابن شُبْرُمة : أراه قد برح ، وكأنه لم يعجبه التعبير بقوله : « لم يكد » . فكفّ ذو الرمة ناقته بزمامها وجعل يتأخر بها ويفكر ، ثم عاد فأنشد :

إذا غيَّر النَّأْىُ المحبين لم أَجِدْ رسيسَ الهوى من حبِّ ميَّة يَبْرَحُ[٣]

وفى الأغانى أن ضوء بن اللجْلاج تعرّض للأخطل يزرى على بعض معانيه فى المديح والهجاء[٤] ، من ذلك مدحه لعكرمة بن رِبْعِىّ أحد سادة بنى ربيعة وبحورهم الفياضة فى الجود والكرم ، إذ قال فيه من قصيدة طويلة :

قد كنتُ أَحسبه قَيْنًا وأُخْبَرُهُ فاليوم طُيِّر عن أثوابه الشَّرَرُ

فقد ظنه قينا ، وهو سيد نابه ، وكأنما خانه التعبير أو خانته الصورة الخيالية . وفى الأغانى أيضًا أنه « اجتمع النُّصَيب والكميت وذو الرُّمَّة ، فأنشدهما الكميت قصيدته : (هل أنت عن طلب الأيفاع منقلب) حتى إذا بلغ منها إلى قوله :

أَم هل ظعائن بالعلياء نافعة وإن تكامل فيها الأُنْسُ والشَّنَبُ[٥]

عقد نصيب واحدة ، فقال له الكميت : ماذا تحصى ؟ قال : خطأك ، باعدت فى القول ما الأنس من الشنب ؟ ! ألا قلت كما قال ذو الرُّمَّة :

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٧٠ وطبقات فحول الشعراء لابن سلام (طبع دار المعارف) ص ٣٦٢ وما بعدها .

(٢) رسيس الهوى : ابتداؤه .

(٣) الأغانى (طبع الساسى) ١٦/١١٨ والموشح ص ١٧٩ .

(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٩٥ والصناعتين للعسكرى (طبعة عيسى البابى الحلبى) ص ٨٦ .

(٥) الشنب : ماء ورقة وبرد وعذوبة فى الأسنان .

لَمْيَاءُ فى شَفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ وفى اللِّثات وفى أسنانها شَنَبُ[١]

. . . فانكسر الكميت »[٢] . وواضح أن نصيبًا يطلب إلى الكميت أن يقرن كلماته إلى لِفْقها ويصلها بمشاكلاتها، وهو ما سُمى عند البلاغيين فيما بعد باسم مراعاة النظير . ولعل من الطريف أن نجد فكرة وحدة السياق تَندُّ على ألسنتهم ، فقد ذكر الرواة أن عمر بن لجأ قال لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبِمَ ذاك ؟ قال : لأنى أقول البيت وأخاه وأنت تقول البيت وابن عمه ، وأيضًا فإنهم ذكروا أن شخصًا قال لرؤبة بن العجاج : رأيت اليوم ابنك عقبة ينشد شعراً له أعجبنى ، فقال رؤبة : نعم إنه يقول،ولكن ليس لشعره قِران[٣] ، يريد أن أبياته تتوالى متباعدة ، كأنما لا يضمها سياق . ويسوق صاحب الأغانى كثيراً من الملاحظات التى كان يتبادلها شعراء الغزل بالحجاز على معانيهم[٤] ، كما يسوق طرفا من ملاحظات[٥] ابن أبى عتيق والسيدة سكينة[٦] بنت الحسين على أشعارهم . وكان بعض الخلفاء بدمشق وخاصة عبد الملك بن مروان يعلّقون على بعض ما يسمعونه بملاحظات طريفة ، من ذلك أن ابن قيس الرقيات أنشد عبد الملك قصيدته البائية فيه « فلما انتهى إلى قوله :

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فوقَ مَفْرِقِــهِ على جَبينٍ كأنه الذَّهَبُ

غضب عبد الملك وقال له : قد قلت فى مصعب بن الزبير :

إنما مصعبٌ شهابٌ من اللَّـ ـه تجلَّتْ عن وجهــه الظَّلْماءُ

فأعطيته المدح بكشف الغُمَم وجلاء الظُّلم ، وأعطيتنى من المدح ما لا فخر فيه ، وهو اعتدال التاج فوق جبينى الذى هو كالذهب فى النضارة »[٧] وهى ملاحظة دقيقة ، ولا نرتاب فى أنها هى التى ألهمت قدامة فى كتابه نقد الشعر فكرة أن المديح

---

(١) اللمى : سمرة فى الشفة ، الحوة : حمرة فى الشفتين تضرب إلى السواد . اللعس : سواد مستحب فى الشفة .

(٢) أغانى (دار الكتب) ٣٤٨/١ والموشح ص ١٩٣ .

(٣) البيان والتبيين ٢٠٥/١ وما بعدها .

(٤) أغانى (دار الكتب) ١١٣/١٢ وما بعدها .

(٥) أغانى ١٠٠/١ ، ١١٨ ، ١٦٦ وفى مواضع متفرقة .

(٦) أغانى ١٦١/١٦ .

(٧) الصناعتين ص ٩٨ .

ينبغى أن يكون بالفضائل النفسية لا بأوصاف الجسم وما يتصل بها من الحسن والبهاء والزينة[١] . ولعل فى كل ما قدمنا ما يدل على أن الملاحظات البيانية فى العصور القديمة جاهلية وإسلامية لم تغب عن أذهان البلاغيين حين أصّلوا قواعد البلاغة ، وهى بحق تُعَدُّ الأصول الأولى لقواعدهم .

٢

فى العصر العباسى الأول

لا نكاد نصل إلى العصر العباسى الأول حتى تتسع الملاحظات البلاغية ، وقد أعدّتْ لذلك أسباب مختلفة ، منها ما يعود إلى تطور النثر والشعر مع تطور الحياة العقلية والحضارية ، ومنها ما يعود إلى نشوء طائفتين من المعلمين ، عنيت إحداهما باللغة والشعر ، وعنيت الأخرى بالخطابة والمناظرة وإحكام الأدلة ودقة التعبير وروعته .

أما ما يعود إلى تطور النثر والشعر فمردُّه إلى أن كثيرين من الفرس والموالى أتقنوا العربية وحذقوها ، واتخذوها لسانهم فى التعبير عن عقولهم ومشاعرهم ، وأظهروا فى ذلك براعة منقطعة النظير ، وقد أخذوا هم ومَنْ يرجعون إلى أصول عربية خالصة يشعرون بجامعة العروبة العامة ويتنفسون الحضارة العباسية ويصطبغون بأصباغها الثقافية ، وينهضون من خلال ذلك بالنثر والشعر جميعاً نهضة واسعة . ونستطيع أن ننظر فى النثر فسنراه يتطور تطوراً رائعا ، إذ نشأ فيه النثر العلمى الخالص ، واستوعب آثاراً أجنبية كثيرة نُقلت إليه ، منها الأدبى ، ومنها السياسى ، ومنها الفلسفى ، ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد ابن المقفع المتوفَّى سنة ١٤٣ للهجرة ، فقد ترجم عن الفارسية كتباً تاريخية مختلفة وأخرى أدبية وسياسية ، كما ترجم كليلة ودمنة وأجزاء من منطق أرسططاليس . واتسعت الترجمة بعده ،

---

(١) نقد الشعر لقدامة (طبعة مطبعة بريل بليدن) ص ١١١ وما بعدها ، وقد ذكر ملاحظة عبد الملك .

وأُسِّست لها دار الحكمة ، وأكبَّ المترجمون من السريان وغيرهم ينقلون التراث اليونانى والفارسى والهندى .

وكان ذلك تحولا كبيراً فى الفكر العربى ، إذ اصطبغ بثقافات أجنبية كثيرة ، وأخذت أوعية لغته تحمل كل التراث الحضارى القديم ، واتسعت جنباتها سعة شديدة ، وهى سعة أتيح لها منذ أول الأمر كاتب فذٌّ خَبَرَ أساليب اللغة ومرن عليها مرانة دقيقة ، ونقصد ابن المقفع ، وهو بدون ريب يُعَدُّ فى طليعة من ثَبَّتوا الأسلوب العباسى الجديد الذى سُمى باسم الأسلوب المولَّد ، وهو أسلوب يمتاز بالنصاعة والدقة فى اختيار الألفاظ ووضعها فى أمكنتها الصحيحة وبث المعانى المستحدثة فيها دون عوج أو تعقيد ، وقد ذكر الرواة أنه سُئل عن البلاغة وتفسيرها ، فقال[1] :

« البلاغة اسم جامع لمعان تجرى فى وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون فى السكوت ، ومنها ما يكون فى الاستماع ، ومنها ما يكون فى الإشارة ، ومنها ما يكون فى الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخُطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة ما يكون من هذه الأبواب الوَحْىُ فيها والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة . فأما الخطب بين السِّماطين وفى إصلاح ذات البَيْن فالإكثار فى غير خطَل والإطالةُ فى غير إملال . وليكن فى صدر كلامك دليل على حاجتك ، كما أن خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفتَ قافيته . فقيل له : فإن مَلَّ السامعُ الإطالة التى ذكرت أنها حقُّ ذلك الموقف ؟ قال : إذا أعطيتَ كلَّ مقام حقَّه وقمتَ بالذى يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيتَ مَنْ يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شىء ، وأما الجاهل فلستَ منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شىء لا تناله ، وقد كان يقال : رِضا الناس شىء لا يُنال » .

وابن المقفع فى أول تفسيره للبلاغة يعمد إلى القسمة العقلية ، فيجعلها أقساماً فى الصمت والاستماع والإشارة والكلام ، ثم يقسم الكلام أو قل يضع مكانه أنواعه ، وهى الاحتجاج أو المناظرة والجدل ، والجواب فى الحديث ، والشعر ، والكلام المسجوع ،

(١) البيان والتبيين ١/ ١١٥ .

والخطب ، والرسائل . ويطلب فى جميع ذلك الإيجاز ، ولعله يقصد إلى التدقيق وشدة التركيز اللذين يُحدِثان فى الكلام حدة وضربًا من اللَّذْع ، بحيث يصيب المتكلم هدفه مباشرة ، وقد رجع يطلب فى خطب المحافل والصلح الإطنابَ ، ولكن بحيث لا يُمل الخطيب السامعين ، وبحيث يقصد إلى غايته قصدا ، دون إعادة لمعانيه ، ودون انحراف عن مراده . ولا يلبث ابن المقفع أن يضع قاعدة مهمة لكل متكلم أن يكون فى فاتحة كلامه ما يشير إلى غرضه ، وهو ما سماه فيما بعد أصحاب البديع باسم حسن الاستهلال .. ويضيف إلى ذلك فكرة ثانية تتصل بأبيات الشعر إذ يقول إن خيرها ما دلّ صدره على قافيته ، وهو ما سماه فيما بعد ابن المعتز باسم رد الأعجاز على ما تقدمها[١] ، ثم سماه أصحاب البديع ردّ الأعجاز على الصدور . ويلاحظ ابن المقفع أخيراً كما لاحظ أولا أن لكل من الإيجاز والإطناب مقامه ، ولكل مقام سياسته ، فما يصلح فيه الإيجاز لا يصلح فيه الإطناب وكذلك لا يصلح الإطناب فى موضع الإيجاز ، فلكل منهما مكانه ومقامه . ويشير إلى حقوق الكلام ، ولعله يريد فصاحته وجريانه على قوانين البيان العربى .

وهو يُسلِكُ فى كتّاب الدواوين ، وهم يُعَدُّون أهمَّ مَنْ عُنى من الكاتبين بصياغة النثر العربى حينئذ ، إذ كانوا يُختَارون من الفصحاء البلغاء ، وقد تحولوا بالدواوين العباسية إلى ما يشبه مدرسة نثرية كبيرة ، إذ كانوا يتعهّدون مَنْ تحت أيديهم مِنْ صغار الكُتّاب ، وكانوا لا يزالون يراجعونهم فيما يكتبون من رسائل ، فإذا وقفوا منهم على ناشئ تنم كتابته عن تفنن فى القول شجعوه ، وربما قدموه إلى الخليفة أو إلى بعض الوزراء فلمع اسمه وتألق نجمه . وكانوا يأخذون أنفسهم بالتثقف ثقافة واسعة بكل ما نُقل من التراث الأجنبي ، وخاصة الفلسفة اليونانية ، كما كانوا يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة ، وهى ثقافة ما زالوا يكبّون عليها حتى وقفوا على تصاريف الكلام ووجوه استعماله وميّزوا بين جيده ورديئه ومقبوله ومرذوله ، وبلغوا من ذلك كله مبلغًا جعل الجاحظ ينوه بهم فى بيانه طويلا ، يقول : « أما أنا فلم أرَ قطّ أمثل طريقة فى البلاغة من الكتّاب ، فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيًّا ولا ساقطًا سوقيًّا »[٢] فهم يجتنبون فى كتابتهم الساقط والوحشى ،

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز (نشر كراتشقوفسكى) ص ٤٧ .

(٢) البيان والتبيين ١/١٣٧ .

وهم يدققون فى انتخاب ألفاظهم وفى التخلص إلى المعانى الطريفة . وعنايتهم بالمعانى لم تكن تقل عن عنايتهم بالألفاظ ، غير أن الجاحظ التفت إلى عنايتهم الثانية ، لأنهم بلغوا فيها — على ما يظهر — الغاية . وقد عاد مرة فى بيانه يشيد بعنايتهم بالطرفين جميعاً هم ونابهى الشعراء ، يقول : « ورأيت عامتهم لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيَّرة والمعانى المنتَخبة وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السَّهلة والديباجة الكريمة وعلى الطبع المتمكن وعلى السبك الجيد وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عَمَرَتْها وأصلحتها من الفساد القديم وفتحت للسان باب البلاغة ودلَّت الأقلام على مدافن الألفاظ وأشارتْ إلى حِسان المعانى . ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام فى رُواة الكتَّاب أعم وعلى ألسنة حُذَّاق الشعراء أظهر »[1] .

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الكتَّاب كانوا يعيشون لإحسان الكتابة فى أساليبها ومعانيها ، وكان ذوقهم مترفاً بعامل ما انغمسوا فيه من الحضارة ، وكانت عبارة تُعْجِبُ فى كتاب أو رسالة لهم خليفة أو وزيرا فإذا هم يَصْعدون إلى أعلى المناصب ، لذلك مضوا يصفّون كلامهم ويتخيرونه مما يجمع الجزالة والرصانة مع السلامة والنصاعة ، ومع الرونق والطلاوة ، وكانوا لا يزالون يُبْدِئون ويعيدون فى صفات البيان الحسَن والبلاغة ، يَشْركهم فى ذلك من حولهم حتى من تسنَّموا منصب الوزارة مثل جعفر بن يحيى البرمكى ، وكان فى الذروة من الفصاحة والبلاغة ، وفيه يقول الجهشيارى « كان جعفر بليغاً كاتباً ، وكان إذا وقَّع نسختْ توقيعاته وتدورست بلاغاته »[2] وفيه يقول ثمامة بن أشرس : « كان جعفر بن يحيى أنطق الناس ، قد جمع الهدوء والتمهل والجزالة والحلاوة وإفهاماً يغنيه عن الإعادة ، ولو كان فى الأرض ناطق يستغنى بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة ، وقال ثمامة مرة : ما رأيت أحداً كان لايتحبَّس ولا يتوقَّف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ، ولا يرتقب لفظاً قد استدعاه من بُعْد ، ولا يلتمس التخلص إلى معنى قد تعصَّى عليه طلبه أشدَّ اقتداراً ولا أقل تكلفاً من جعفر بن يحيى »[3] . ونرى ثمامة إعجاباً منه بجعفر و بيانه البليغ وفتنةً منه بما يحسن من التعبير وما يكسوه من تفننه يسأله :

---

(١) البيان والتبيين ٤/٢٤ وانظر العمدة لابن رشيق (طبعة أمين هندية) ٢/٨٤ .

(٢) الوزراء والكتاب للجهشيارى (طبعة الحلبى) ص ٢٠٤ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٠٥ .

ما البيان ؟ فيجيبه بقوله : « أن يكون الاسم يحيط بمعناك ، ويجلّي عن مغزاك ، وتُخرِجه عن الشركة ، ولا تستعين عليه بطول الفكرة ، والذى لابُدّ منه أن يكون سليما من التكلف بعيداً من الصنعة ، بريئًا من التعقيد ، غنيًّا عن التأويل »(١). وجعفر يريد بالاسم اللفظ ، ويقول إنه ينبغى أن يحيط بالمعنى بحيث يحصره من جميع أطرافه ، كما ينبغى أن يجلى عن مغزاه بحيث يشفّ عنه ، وأيضًا فإنه ينبغى أن يخرج عن الشركة ، بحيث تُختار له الكلمات الدقيقة التى تدل على المعنى فى وضوح دون أن تشترك معه معان أخرى . وينبغى أن يبرأ من التكلف والتعقيد بحيث لا يظهر فيه التعمل والتصنع ، وبحيث لا يحتاج إلى شرح أو تفسير . وانصبّ من هذا التعريف معان كثيرة فى « البيان والتبيين » إذ نرى الجاحظ من حين إلى حين يوصى بالوضوح ويَنْهَى عن التكلف والتعمية والتعقيد والاستغلاق .

وجعفر إنما هو مثل واحد من أمثلة هؤلاء الكتاب الذين برعوا فى فنون التعبير ، والذين طالما أداروا بينهم آراءهم فى البيان والبلاغة . وإذا تركنا كُتّاب هذا العصر إلى شعرائه وجدناهم يتطورون أيضًا بشعرهم تطوراً بعيداً ، بتأثير حياتهم الحضارية والعقلية ، وبَوْن بعيد بين شعر جرير شاعر العصر الأموى وشعر بشار شاعر العصر العباسى الأول ، فالشعر عند جرير يحتفظ بموضوعاته وتقاليده الجاهلية ، وحقًّا يتطور فى بعض معانيه وبعض جوانبه ، ولكن فى حدود الإطار القديم ، أما عند بشار فإنه ينزع منزعين مختلفين : منزعا يحتفظ فيه بشار بالتقاليد الموروثة مع شىء من التطور بتأثير ما حدث من رقى العقل العربى لكثرة ما تزوّد به من المعارف الأجنبية ، وأيضًا بتأثير ما داخل الحسّ العربى من تحضر ومن رقة الشعور ورفاهته ، وهو منزعٌ كان يُضْطَرّ إليه اضطراراً حين يُعْنَى بمديح الخلفاء والوزراء والقواد والأمراء ، إذ كان هو الذى يرضيهم فيُضْفون عليه نوالهم الغَمْر . وكان يقابل هذا المنزعَ عنده منزعٌ ثان لم يكن يُعْنَى فيه بالمديح ، إنما كان يُعْنَى بتصوير حياته الشخصية وأهوائه وميوله ولهوه وطربه وخمره وحبه . وتبعه الشعراء العباسيون ينزعون فى شعرهم نفس المنزعين ، مضيفين إلى أنغام المنزع الثانى أنغامًا كثيرة ، وهى أنغام أهملوا فيها أو على الأقل فى جمهورها ما عُرِف به العرب من العفة والوقار والارتفاع

(١) البيان والتبيين ١٠٦/١ .

عن الدنيات ، إذ أطلقوا لأنفسهم العنان فى اللهو والمجون وفى تصوير عواطفهم وأهوائهم دون أى احتشام .

وأخذ الشعراء فى المنزعين جميعًا يُعْنون عناية شديدة بالعربية ، وراح فريق منهم إلى البادية كى يتزوَّد من منابعها الأصلية ، يتقدَّمهم بشار[1] وأبونواس[2] ، ومن أقام منهم فى الحاضرة لزم اللغويين فى المساجد الجامعة يروى عنهم الشعر القديم ، وما يزال يرويه حتى تستقيم له سليقته العربية ، وحتى يغدو كأنه عربى أصيل ، وقد مضوا يلائمون بين لغة الشعر القديم وبين ما عاشوا فيه من حضارة ومن رقى عقلى ، مستخدمين كل ما يملكون من مهارة ، وبذلك ثبَّتوا بدورهم الأسلوب المولَّد الجديد كما ثبَّته الكتاب والمترجمون من أمثال ابن المقفع ، وهو أسلوب يمتاز بالكلمة المنتخبة الرشيقة ، وبالمعنى المصيب الدقيق ، أسلوب يمتاز حينا بالصفاء والنقاء والنعومة والعذوبة ، وحينا بالجزالة والرصانة . وقد انبعثوا يحاولون التجديد ، فأدخلوا الشعر التعليمى ، ومرَّنوا له وزن الرجز مرانة واسعة ، واستحدثوا كثيراً من الأوزان ، كما استحدثوا كثيراً من المعانى يرفدهم عقلهم الراقى وما ثقفوه من الفلسفة والفكر الأجنبى . وهم فى ذلك كله لا ينسون الشعر القديم وألفاظه ومعانيه ، حتى لكأنما تحول تحت أبصارهم إلى ما يشبه جذاذات العلماء حين يصوغون كتابا ، فهم دائمًا يستمدون منه ، وعيونهم دائمًا مصوَّبة إليه ، ومن ثمَّ ظل الشعر القديم حيًّا فى هذا العصر ، بل لعله حَيِىَ حينئذ حياة أكثر خصبًا من حياته القديمة ، فقد عاد ليُبْعَثَ بعثا جديداً ، بعثا يتمثَّل فيه العصر بطاقاته الحضارية والعقلية ، وكأنما انمحت الفروق بين البوادى وحواضر العراق ، فحياة تلك الحواضر وحياة الصحراء تلتقى جميعًا هذا اللقاء الحى المثمر الذى كان يتحول فيه كل معنى قديم إلى صورة عباسية جديدة . وهذا هو السر فى أن تيار القديم ظل يجرى فى الشعر العباسى جريان السَّيْل وينصبّ فيه انصباب القَطْر . وكلما انتهى جيل من أجيال العصر أسلم تراثه مع التراث القديم إلى الجيل الذى خلفه ، فاتصل بالتراثين جميعًا ، وعمل بدوره فى تثبيت الأسلوب المولَّد الجديد

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٣/١٤٩ .

(٢) أخبار أبى نواس لابن منظور (طبع مصر) ص ١٢ .

وهذا الالتقاء بين الجديد والقديم وما كان من استغلال الجديد للقديم هذا الاستغلال الحى الخصب دفع إلى نشاط الملاحظات البلاغية نشاطاً واسعاً ، فإن الشعراء وازنوا كثيراً بين معانيهم ومعانى القدماء ، وحاولوا أن يثبتوا تفوقهم عليهم أو على الأقل أنهم يجارونهم فى بعض بدائعهم ولا يتخلّفون عنهم ، ومن خير ما يصور ذلك قول بشار : ما زلتُ أروِّى فى بيت امرئٌ القيس :

كأَنّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا ويابسًا لدى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى[1]

إذ شبَّه شيئين بشيئين ، حتى صنعت :

كأَنّ مُثارَ النَّقْعِ فوق رءُوسنا وأسيافَنا ليلٌ تَهَاوَى كواكبُهْ[2]

وهو إنما يريد مجرد تشبيه شيئين بشيئين ، إذ التشبيهان مختلفان . ولعل فى ذلك ما يشير إلى أن الشاعر العباسى كان يحاول محاكاة الشاعر القديم فى وسائله البلاغية من تشبيه وغير تشبيه ، مستعيناً بفكره الدقيق ولطف مسالكه إلى المعانى والأخيلة ، وبحسّه الحضرى الرقيق ومشاعره المرهفة ، ومن خير ما يصور ذلك أن نجد بشاراً يستمع إلى قول كثيّر :

ألا إنما ليلى عَصَا خَيْزُرانةٍ إذا غمزوها بالأَكفِّ تَلِينُ

فيقول : والله لو جعلها عصا مُخ أو عصا زُبْد لما أحسن ، لقد جعلها جافية خشنة . وكان قد أدار المعنى فى نفسه وسوّاه تسوية جديدة فى بعض غزله ، فقال : ألا قال كما قلت :

ودَعْجاءِ المَحاجر من مَعَدٍّ كأَن حديثها ثَمَرُ الجِنان[3]
إذا قامتْ لِمشْيتها تَثَنَّتْ كأَنّ عظامها من خَيْزُرَانِ

وبذلك أخلى المعنى من جفوته وخشونته[4] . وقدمضى هو ومعاصروه يتبارون فى حسن الصياغة وجمال الديباجة وفى الألفاظ المونقة ذات البهاء والرونق ، وتصور

---

(١) العناب : عنب الديب . الحشف : أسوأ التمر .
(٢) أغانى ٣/١٩٦ .
(٣) دعجاء : من الدعج وهو سواد العين مع سعتها .
(٤) أغانى ٣/١٥٤ وانظر الصناعتين ص ٢١٣ .

هذا الجانب من بعض الوجوه قصة غضب بشار على تلميذه سلم الخاسر ، إذ رآه يَعْدو على بيته :

مَنْ راقب الناس لم يَظْفَرْ بحاجتهِ وفاز بالطيِّبات الفاتكُ اللَّهِجُ

فينسخه ببيت أسْلَس منه صياغةً وأخف عبارة ، وأكثر وضوحًا ، مع الإيجاز والدقة والنّصاعة ، إذ قال :

من راقب النـــاس مات غَمًّا وفـــاز باللذة الجَسورُ

ويقال إنه حين سمعه تأوّه ، وقال : ذهب والله بيتى . وغاضب سلما ونحّاه عن مجلسه ونفسه ، حتى كلّمه فيه بعضُ إخوانه ، فردّه[1] . وفى كتب الأدب أخبار كثيرة تصور عناية الشعراء باختيار ألفاظهم وفقههم الحسَن بهذا الاختيار ، من ذلك ما يُرْوَى أن رجلا أنشد ابن هَرْمة بيته :

بالله ربِّك إن دخلتَ فقُلْ لها هذا ابن هَرْمة قائماً بالبابِ

فقال للرجل ما كذا قلت ، أكنت أتصدّق (أسأل) قال : فماذا ؟ قال واقفًا ، ثم قال له : ليتك علمتَ ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى[2] . وهناك محاورات كثيرة كان يراجع فيها الشعراء زملاءهم كانت تنعقد كلما اجتمعوا فى ناد أو مجلس ، وكانوا يبدون فيها كثيراً من الملاحظات على المعانى وصحتها وفسادها والألفاظ وغرابتها وغثاثتها ، من ذلك ما يُرْوَى من أن أبا نواس أنشد مسلمًا قوله فى الصَّبُوح :

ذكرَ الصَّبوحَ بسُحْرةٍ فارتاحا وأملَّه ديكُ الصَّباحِ صياحا

فقال له مسلم : قِفْ عند هذا البيت لِمَ أملَّه ديك الصباح وهو يبشره بالصَّبوح الذى ارتاح له ؟ فقال له أبو نواس : فأنشدْنى أنت ، فأنشده مسلم :

عاصَى الشبابَ فراحَ غير مفنَّدٍ وأقام بين عزيمةٍ وتجلُّدِ[3]

فقال له أبو نواس : ناقضت، ذكرت أنه راح ، والرواح لا يكون إلا بانتقال

---

(١) أغانى ٣/١٩٩ وطبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ١٠٠ .
(٢) الصناعتين ص ٦٨ .
(٣) مفند : ملوم ، من التفنيد وهو اللوم .

من مكان إلى مكان ثم قلت : (وأقام بين عزيمة وتجلد) فجعلته متنقلا مقيماً ، وتشاغبا فى ذلك[١] وبما كانوا ينكرونه إنكاراً شديداً التبدّى فى القول وحَشْد الألفاظ الغريبة ، وكان ابن مناذر ممن يسرفون على أنفسهم فى ذلك ، فقال له أبو العتاهية : « أنت خارج عن طبقة المحدثين ، فإن كنت تشبهتَ بالعجَّاج ورُؤبَة فما لحقتهما ولا أنت فى طريقهما ، وإن كنت تذهب مذهب المحدثين فما صنعت شيئا، أخبرنى عن قولك : (ومن عاداك لاقى المَرْمَرِيسا)[٢] أخبِرْنى عن المرمريس ما هو ؟ فخجل ابن مناذر وما راجعه حرفاً[٣]. وكان أبو العتاهية قد اختار لنفسه فى شعره وخاصة زهدياته أسلوبًا لينًا، بناه على السهولة واللفظ الخفيف المألوف الذى تأنس له العامة ، وكان ذلك يُعَدّ انحرافًا عن الأسلوب الجزل الفخم الذى تشيع فيه الرصانة ، والذى كان يجرى فيه الشعر الرسمى شعر المديح ، فانبرى مسلم بن الوليد يقول له : « والله لو كنت أرضى أن أقول مثل قولك :

الحَمْــدُ والنعمةُ لَكْ والمُلْكُ لا شريكَ لَكْ
لبَّيْك إن المُلْكَ لَكْ

لقلت فى اليوم عشرة آلاف بيت ، ولكنى أقول :

مُوفٍ على مُهَجٍ فى يوم ذى رَهَجٍ كأنه أجلٌ يَسْعَى إلى أَمَلِ[٤]

والمسألة فى واقعها كانت تدور حول مذهبين : مذهب كان يرى أصحابه من أمثال أبى العتاهية أن يقترب الشعر من لغة الشعب اليومية ، حتى يمسّ جميع القلوب ، وكان أبو العتاهية يصرّ على ذلك إصراراً شديداً حتى ليقول : « الصواب لقائل الشعر أن تكون ألفاظه مما لا يخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فإن الزهد ليس من مذاهب الملوك ولا من مذاهب رواة الشعر ولا طُلاّب الغريب ، وهو مذهب أشغفُ الناسِ به الزهادُ وأصحابُ الحديث والفقهاء والعامة ، وأعجب الأشياء إليهم ما فهموه »[٥] . وكان يقابل هذا

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة (طبع دار المعارف) ص ٧٨١ .
(٢) المرمريس : الداهية .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٤/٩٠ .
(٤) أغانى ٤/٢٧ . والرهج : غبار الحرب .
(٥) أغانى ٤/٧٠ .

المذهب مذهب يعتدّ بقوة الرصف وفخامته وجزالته وضخامته ، وهو مذهب مسلم ، بل هو مذهب جمهور الشعراء فى مدائحهم الرسمية ، منذ بشار ومعاصريه . وقد مضوا يُنَمّون ما وجدوه عند القدماء من تشبيهات واستعارات وجناسات ومقابلات حتى إذا ظهر مسلم جعل هذه المحسنات جزءاً لا يتجزء من جوهر شعره ، وأطلق عليها لأول مرة اسم « البديع »[1] وخلفه أبو تمام فأوفى بهذا البديع على الغاية المرتقبة من الإكثار والتفنن ، بل من الإفراط والإسراف البعيد .

وعلى هذا النحو كان الشعراء والكتّاب يكثرون من ملاحظاتهم البلاغية ، محاولين بكل ما وسعهم أن يذللوا المادة الأدبية القديمة لتحمل عصرهم ونفوسهم وأحاسيسهم وعقولهم وأخيلتهم ، واستطاعوا أن يستوعبوا خصائص الأدب القديم وأن ينموها ليبلغوا كل ما كانوا يرومونه من روعة الشعر والنثر . إن الأدب فى رأيهم تفهم ودراسة لنماذجه القديمة حتى يتشبّع بها الشاعر والكاتب ، ثم يأخذ فى أن يجد نفسه ومحيطه ، ويصورهما فى لغة منمقة تزخر بالمحسنات أو فى لغة شفافة لطيفة كالغلائل الرقيقة . ولم يكن الشعراء والكتاب وحدهم الذين مضوا يدرسون وجوه البيان والبلاغة فى فنهم ، فقد كان يشركهم فى ذلك طائفتان من المعلمين أخذوا فى الظهور مع أواخر القرن الأول للهجرة وأوائل الثانى ، وهما طائفة المتكلمين الذين كانوا يُعْنَوْن بتعليم الشباب فن الخطابة والمناظرة ، وسنخصهم بحديث مستقل عما قليل ، ثم طائفة اللغويين والنحويين وكانوا يحترفون تعليم اللغة ومقاييسها فى الاشتقاق والإعراب ، مضيفين إلى ذلك رواية واسعة للشعر القديم . ولم يكونوا يكتفون بالرواية وحدها فقد عُنُوا أشد العناية بشرح ما يَرْوُونَ ودَرْسه وتبين خصائصه التعبيرية والأسلوبية . وحقًّا كانت عنايتهم القوية تنصبُّ على استنباط أصول اللغة العربية من الوجهتين الاشتقاقية والنحوية ، غير أنهم مع ذلك كانوا يُعْنَوْن بتلقين الناشئة شيئًا من الخصائص البيانية ، يأتى ذلك عرضًا فى ثنايا شرحهم وعرضهم للقواعد اللغوية والنحوية ، ومن يرجع إلى كتاب البديع لابن المعتز يجده يذكر الخليل بن أحمد فى صدر حديثه عن التجنيس والمطابقة ، يقول فى التجنيس : « قال الخليل : الجنس لكل ضرب من الناس والطير والعروض

(١) انظر ترجمة مسلم فى الأغانى الملحقة بديوانه (طبع دار المعارف) ص ٣٦٤ .

والنحو ، ومنه ما تكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ومعناها »[١] ويقول فى المطابقة : « قال الخليل – رحمه الله – يُقال: طابقتَ بين الشيئين إذا جمعتَهما على حَذْو واحد »[٢] ولعل ابن المعتز إنما كان ينقل عن الخليل المعنى اللغوى الأصلى للمطابقة . على أن من يرجع إلى كتاب سيبويه الذى يُقال إنه جلب مادته من إملاءات الخليل يجده يعرض لبعض الخصائص الأسلوبية التى عُنى بها فيما بعد علم المعانى من مثل التقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف ، وأيضًا فإنه يعرض المعانى المختلفة لبعض الأدوات ، ومن حين إلى حين نلتقى بإشارات إلى بعض مسائل بيانية . وتكثر هذه الإشارات عند الفرّاء المتوفى سنة ٢٠٧ للهجرة فى كتابه « معانى القرآن » إذ عُنى فيه بشرح آى الذكر الحكيم شرحًا بَسَطَ فيه الكلام فى التراكيب وتأويل العبارات ، وتحدث فيه عن التقديم فى الألفاظ والتأخير والإيجاز والإطناب والمعانى التى تخرج إليها بعض الأدوات كأداة الاستفهام ، كما تحدث أو قل أشار إلى بعض الصور البيانية من مثل التشبيه والكناية والاستعارة . وكان يعاصر الفراء أبو عبيدة[٣] معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٨ والأصمعى المتوفَّى سنة ٢١١ ولأولهما كتاب مشهور يسمى « مجاز القرآن » وظاهر عنوانه يوهم أنه صنَّفه فى المجاز بالمعنى البلاغى الاصطلاحى ، وحقيقة الأمر أن كلمة المجاز عنده تعنى الدلالة الدقيقة لصيغ التعبير القرآنية المختلفة ، وقد تنبه لذلك القدماء ، يقول ابن تيمية : « أول من عُرِف أنه تكلم بلفظ المجاز أبو عبيدة معمر بن المثنى فى كتابه ، ولكن لم يَعْنِ بالمجاز ما هو قَسيم الحقيقة ، وإنما عَنَى بمجاز الآية ما يعبَّر به عن الآية »[٤] أو بعبارة أخرى عَنَى به تفسيرها وتأويلها . ويتضح هذا المعنى منذ السطور الأولى فى الكتاب ، فقد جاء فى فاتحته : « قال الله جلَّ ثناؤه : (إن علينا جَمْعَهُ وقُرْآنه) مجازه : تأليف بعضه إلى بعض ، ثم قال : (فإذا قرآناه فاتَّبِعْ قُرْآنَه) مجازه: فإذا ألَّفْنامنه شيئًا فضممناه إليك فخُذْ به واعملْ به وضُمَّه إليك» . على أنه يلاحظ أنه اختار الآيات التى تصور طرقًا مختلفة فى الصياغة والدلالة ، متمثلا بما يشبهها من أشعار العرب وأساليبهم ، وشارحًا

---

(١) كتاب البديع ص ٢٥ .

(٢) كتاب البديع ص ٣٦ .

(٣) انظر فى ترجمة أبى عبيدة أخبار النحويين البصريين ص ٦٧ وتاريخ بغداد ٢٠٢/١٣ ومعجم الأدباء ١٥٤/١٩ وإنباه الرواة ٢٧٦/٣ وما به من مراجع .

(٤) كتاب الإيمان لابن تيمية ص ٣٥ .

لما تتضمنه من لفظ غريب . وأدّاه هذا الاختيار إلى أن يتحدث عما فى الآيات من استعارة وتشبيه وكناية وتقديم وتأخير وحذف وتكرار وإضمار . وتَوَسَّعَ فى تصوير الخصائص التعبيرية كالدلالة بلفظ الخصوص على معنى العموم وبلفظ العموم على معنى الخصوص ، وكمخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ومخاطبة الجميع مخاطبة الواحد ، ومخاطبة الواحد مخاطبة الاثنين ، وتنبَّه فى ثنايا ذلك إلى الصورة العامة للالتفات ، وإن لم يقترح لها اسمه الاصطلاحى ، يقول : « ومن مجازِ ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تُركت وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب ، قال الله : (حتى إذا كنتم فى الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بهم) أى بكم »[١] .

ولم يترك الأصمعى[٢] فى صيغ التعبير القرآنى و الأدبى كتاباً مثل كتاب أبى عُبَيْدة ، غير أن من جاءوا بعده أشاروا إلى أنه ألَّف فى التجنيس كتاباً ، يقول ابن المعتز : « التجنيس هو أن تجىء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر وكلام ، ومجانستُها لها أن تُشْبِهها فى تأليف حروفها على السبيل التى ألَّف الأصمعى كتاب الأجناس عليها »[٣] . ويظهر أنه أول من أفاض فى الحديث عن المطابقة بمعناها الاصطلاحى ، وربما كان أول من اقترح اسمها ، يقول ابن رشيق : « ذكر الأصمعى المطابقة فى الشعر فقال : أصلها (اللغوى) وَضْع الرجْل فى موضع اليد فى مَشْى ذوات الأربع . ثم قال أحسنُ بيت قِيلَ لزهير فى ذلك :

لَيْث بِعَثَّرَ يَصْطادُ الرجالَ إذا ما اللَّيْثُ كذَّب عن أقرانه صدقا »[٤]

وهو أول بيت مثّل به ابن المعتز للمطابقة أو الطباق[٥] . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن الأصمعى أول من اقترح « للالتفات » اسمه الاصطلاحى فى البلاغة ، وقد جعله ابن المعتز على نوعين : نوع ينصرف فيه المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك ، وهذا هو الذى يصدق على الالتفات فى الآية القرآنية المذكورة آنفاً عند أبى عبيدة . ونوع ثان ينصرف فيه المتكلم عن معنى

---

(١) مجاز القرآن لأبى عبيدة بتحقيق محمد فؤاد سركين (نشر الخانجى) ص ١١ .

(٢) راجع فى ترجمة الأصمعى أخبار النحويين البصريين ص ٥٨ وتاريخ بغداد ١٠/ ٤١٠ وطبقات القراء ١/ ٤٧٠ وإنباه الرواة ٢/ ١٩٧ وما به من مراجع .

(٣) كتاب البديع ص ٢٥ .

(٤) انظر العمدة (الطبعة الأولى) ٢/ ٧ ، وعثر : موضع قبل تبالة من أرض اليمن . كذب : لم يصدق .

(٥) كتاب البديع ص ٣٨ .

obeikandi.com

يكون فيه إلى معنى آخر[١] ، أو بعبارة أدق : بعد أن يفرغ من المعنى وتظن أنه سيجاوزه يلتفت إليه ، فيذكره بغير ما تقدم ذكره به ، وقد تنبه الأصمعى إلى هذا النوع الثانى وأعطاه اسمه الاصطلاحى لأول مرة فيما نعلم ، إذ رُوِى أنه « سأل بعض من كان يتحدَّث إليهم أتعرف التفاتات جرير ؟ فقال له لا فما هى ؟ قال :

أتنسى إذ تودِّعُنا سُلَيْمَى ... بعودِ بَشامةٍ ، سُقِىَ البَشَامُ[٢]

ألا تراه مقبلا على شعره ، ثم التفت إلى البشام ، فدعا له . وقوله :

طَرِبَ الحمامُ بذى الأَراك فشاقنى ... لازلت فى غَلَلٍ وأَيْكٍ ناضر[٣]

فالتفت إلى الحمام فدعا له[٤] » . وأنشد ابن المعتز فى حديثه عن الالتفات البيتين جميعًا ، وكأنه أخذ عنه الاسم الاصطلاحى إلا أنه أضاف إليه النوع الأول ، وجعله أوسع دلالة . وتنبَّه الأصمعى أيضًا إلى اللون البديعى المعروف باسم « الإيغال » وإن لم يقترح له اسمه ، وهو كما عرَّفه قدامة : « أن يأتى الشاعر بالمعنى فى البيت تامًّا من غير أن يكون للقافية فيما ذكره صُنْع ، ثم يأتى بها لحاجة الشعر فى أن يكون شعراً إليها ، فيزيد بمعناها فى تجويد ما ذكره فى البيت »[٥] ونرى التَّوَّزِىّ يقول : « قلت للأصمعى : من أشعر الناس ؟ فقال : من يأتى بالمعنى الخسيس ، فيجعله بلفظه كبيراً ، أو الكبير فيجعله بلفظه خسيسًا ، أو ينقضى كلامه قبل القافية ، فإذا احتاج إليها أفاد بها معنى ، قال : قلت : نحو من ؟ قال : قول ذى الرُّمَّة حيث يقول :

قِفِ العِيس فى أطلال ميَّة فاسْأَلِ ... رُسومًا كأَخلاق الرداء المُسَلْسَلِ[٦]

فتمّ كلامه بالرداء قبل « المسلسل » ثم قال « المسلسل » فزاد شيئًا بالمسلسل . ثم قال :

أظن الذى يُجْدِى عليك سؤالها ... دموعا كتَبْديد الجُمانِ المفصَّلِ[٧]

---

(١) كتاب البديع ص ٥٨ .

(٢) البشام : شجر لا ثمر له .

(٣) ذو الأراك : موضع . الغلل : الماء على سطح الحدائق . الأيك : الشجر الملتف .

(٤) الصناعتين ص ٣٩٢ .

(٥) نقد الشعر لقدامة نشر بونيباكر (طبع ليدن) ص ٩٧ .

(٦) الرداء الخلق والأخلاق : البالى . المسلسل ردىء النسج .

(٧) الجمان : اللؤلؤ . المفصل : الذى جعل بين كل لؤلؤتين منه فى عقد خرزة .

فتم كلامه بالجمان ، ثم قال « المفصل » فزاد شيئاً . قلتُ : ونحو مَن ؟ قال الأعشى حيث يقول :

كناطحٍ صخرةً يوماً ليَفْلِقَها   فلم يَضِرْها وأوهى قَرْنَه الوَعِلُ

فتم كلامه بيَضِرْها ، فلما احتاج إلى القافية قال : « وأوهى قرنه الوَعِلُ » فزاد معنى . قلت : وكيف صار الوعل مفضَّلاً على كل ما ينطح ؟ قال : لأنه ينحطُّ من قلة الجبل على قَرْنيه فلا يَضيره »[1] . وأغلب الظن أن الأصمعى إنما أشار فى صدر كلامه للتوزى إلى ما سماه ابن المعتز الإفراط[2] فى الصفة ، وسمَّاه قدامة بعده باسم المبالغة[3] .

وعلى هذه الشاكلة كان المعلمون من اللغويين والنحاة ينثرون فى تضاعيف كلامهم وشروحهم للشعر وآى القرآن الكريم ملاحظات مختلفة على بلاغة الكلام وصوره البيانية والتعبيرية ، بحيث يمكن أن يقال إنهم أدَّوا حتى أوائل القرن الثالث الهجرى فى هذا الصدد خدمة قيمة ، بفضل نظراتهم الفاحصة الدقيقة .

٣

المتكلمون — المعتزلة

كان يقابل طائفة المعلمين من النحاة واللغويين طائفة ثانية من معلمين كانوا يُعْنَوْن بمسائل البيان والبلاغة ، لاتصالها بما كانوا ينهضون به من الخطابة والمناظرة ، ونقصد طائفة المتكلمين الذين أخذوا ينقسمون منذ أواخر القرن الأول للهجرة فرقاً تتجادل فى نظرياتها العقيدية من إرجاء وجبر واختيار ، وكانت تزخر بهم مساجد الكوفة والبصرة وبغداد بعد إنشائها . ومنذ ظهورهم فى عصر بنى أمية ، وهم يتخاصمون ويتحاورون حواراً عنيفاً كلٌّ يحاول أن يقهر خصمه ويظهر عليه ، وسرعان ما أصبحت هذه المحاورات والخصومات ، بل قل المناظرات ، شُغْلَ الناس الشاغل ، فهم يعجبون بهذا المناظر أو ذاك ، وهم يتحدثون فيمن كان له الظفر

(١) الصناعتين ص ٣٨٠ .
(٢) كتاب البديع ص ٦٥ .
(٣) نقد الشعر ص ٧٧ .

ومن هُزم وغُلب على أمره ، ويحاولون أن يتبينوا أسباب الظفر والهزيمة ، فيعودوا إلى النظر فى حجج الخصمين وفى لغتهما ومخارج حروفهما وإشاراتهما وهيآتهما .

وكلما تقدمنا مع الزمن احتدمت المناظرات بين هؤلاء المعلمين ، واحتدمت معها الأسئلة فى نجاح المناظر والخطيب ، إذ كان جمهور هؤلاء المعلمين يعنى بوعظ الناس، وكان منهم من يحسن الخطابة والمناظرة والجدل ، ومنهم من لا يوفّيها جميعًا حقوقها ، فكثر الحديث فى قوة الحجج وفى وضوح العبارة ودقتها وفى جهارة الصوت ، وفى ملامح المتكلم وفى ملاءمته بين كلامه والمستمعين . وكان يُعْنَى كل صاحب نحلة فيهم أن يجمع من حوله الشباب وأن لا ينصرفوا إلى خصومه ، فأخذوا يقفونهم على النقص فى الحجج والأدلة والنقص فى الأداء والبيان ، كما أخذوا يقفونهم على أسرار المهارة فى الإقناع والظفر بالخصوم وأسرار البراعة فى القول ، ومضوا يمرنونهم على المناظرة تدريبًا لهم ، على نحو ما نجد عند الحسن البصرى المتوفى سنة ١١٠ للهجرة إذ نراه يدعو تلميذه عمرو بن عُبَيْد لمناظرة واصل بن عطاء فى الحُكْم على مرتكب الكبيرة ، وكان الحسن يراه مؤمنًا منافقًا أو فاسقا ، وتراه الخوارج كافراً ويراه واصل فى منزلة وسطى بين منزلتى المؤمن والكافر ، واستطاع واصل أن يُقْنع عمرا بوجهة نظره وأن ينتزعه من أستاذه[1] . ويحدثنا الجاحظ أنه كان فاحش اللثْغة فى الراء ، ولما رأى أن مخرجها منه شنيع وهو داعية مقالة ، يجادل فيها أرباب النحل وزعماء الملل لم يزل يكابد ذلك من نفسه ويغالبه حتى أسقط الراء من جميع كلامه وأخرجها من حروف منطقه[2] . وإنما ذكرنا ذلك لندل على أن تصحيح مخارج الحروف كان من أهم الجوانب التى شغلت الناس منذ أول الأمر فى حديثهم عن البيان ، حتى اضطُرّ واصل للتخلص فى كلامه جميعه من حرف كان يَلْثَغُ فيه . ويقول خلاّد بن يزيد الأرقط : « خطب الجُمَحيّ خطبة أصاب فيها معانى الكلام ، وكان فى كلامه صَفِيرٌ يخرج من موضع ثناياه المنزوعة ، فأجابه زيد بن على بن الحسين (المتوفّى سنة ١٢١) بكلام فى جودة كلامه ، إلا أنه فَضَله بحسن المَخْرج والسلامة من الصَّفير ، وذكر عبد الله بن معاوية ابن عبد الله بن جعفر ذلك فقال فى كلمة له يذكر فيها خطبة زيد :

---

(١) أمالى المرتضى (طبعة الحلبى) ١/ ١٦٥ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١٤ .

صحَّتْ مخارجها وتَمَّ حروفُها فله بذاك مزِيَّةٌ لا تُنْكَرُ »[١]

وليس من شك فى أن هذه الملاحظة وما يماثلها هى التى جعلت الجاحظ يفتح فى أوائل كتابه البيان والتبيين فصولا طويلة عن صحة مخارج الحروف . وما يجرى فيها من اللثغات ، إذ وجد المتكلمين من قبله يكثرون من الحديث عنها . وقد مضى يعرض ملاحظاتهم فى شئون البلاغة والبيان مصوراً ما أوتوه من البراعة فى المناظرة والوعظ الدينى وما يتصل به من القصص ، من ذلك وصفه لأبى شَمِر أحد أئمة القدرية المرجئة وما كان من مناظرة النظام له ، إذ قال[٢] :

« كان أبو شَمِر إذا نازع (جادل) لم يحرك يديه ولا مَنْكِبيه ولم يقلب عينيه ولم يحرك رأسه ، حتى كأن كلامه إنما يخرج من صَدْع صخرة . وكان يَقْضى على صاحب الإشارة بالافتقار إلى ذلك وبالعجز عن بلوغ إرادته ، وكان يقول : ليس من حق المنطق أن تستعين عليه بغيره ، حتى كلمة إبراهيم بن سيَّار النَّظَّام عند أيوب بن جعفر (بن سليمان العباسى) فاضطرَّه بالحجة وبالزيادة فى المسألة ، حتى حرَّك يديه وحلَّ حُبْوته ، وحَبَا إليه ، حتى أخذ بيديه » .

وكان النَّظَّام لا يبارَى فى المناظرة وفى إيراد الحجج وتفريع المعانى وتوليدها ، وقد بنى الجاحظ الجزء الأول من حيوانه وبعض الجزء الثانى على مناظرة بينه وبين معبد فى الكلب والديك أيهما أفضل . وممن أشاد ببيانهم من المتكلمين عبد الصمد ابن الفضل بن عيسى الرقاشى ، وكان يَبْنى مواعظه على السجع[٣] ، ويَرْوى الجاحظ أنه تكلم فى خَلْق البعوضة وفى جميع شأنها ثلاثة مجالس كاملة[٤] ، ونراه يقول عن ثُمامة بن أشرس أحد رءوس المعتزلة : « ما علمتُ أنه كان فى زمانه قَرَوِىٌّ ولا بَلَدىٌّ كان بلغ من حُسْن الإفهام مع قلة عدد الحروف ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه . وكان لفظه فى وزن إشارته ، ومعناه فى طبقة لفظه ، ولم يكن لفظه إلى سمعك بأسرع من معناه إلى قلبك »[٥] .

والمعتزلة فى الواقع من أمثال ثُمامة والنظام وواصل هم المجلّون السابقون بين طوائف

---

(١) البيان والتبيين ١/ ٥٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/ ٩١ .
(٣) البيان والتبيين ١/ ٢٨٧ .
(٤) البيان والتبيين ١/ ٣٠٨ .
(٥) البيان والتبيين ١/ ١١١ .

المتكلمين فى البيان البارع إذ نصبوا أنفسهم للدفاع عن الإسلام أمام خصومه من أصحاب الملل ، كما نصبوا أنفسهم لجدال أصحاب الفرق الإسلامية من جبرية ومرجئة ، ومن خوارج وشيعة ، إذ كانوا يقفون فى السياسة موقفاً محايداً ، ومن أجل ذلك لُقبوا بلقبهم « معتزلة » . ونراهم يأخذون أنفسهم بثقافة عربية أصيلة ، مضيفين إليها ألواناً من الثقافة الأجنبية وخاصة من الفلسفة وما يتصل بها من المنطق ، حتّى ليقول الجاحظ : « لا يكون المتكلم جامعاً لأقطار الكلام متمكناً فى الصناعة يصلح للرياسة حتّى يكون الذى يحسن من كلام الدين فى وزن الذى يحسن من كلام الفلسفة ، والعالم عندنا (يريد المعتزلة) هو الذى يجمعهما » (١) وأفادوا من الفلسفة أن نظّمت عقولهم تنظيماً منطقياً دقيقاً وأن جعلتهم يحسنون استنباط الآراء وخصائص الأشياء ، كما جعلتهم يقتدرون على إيراد الحجج والبراهين وتشعيب المعانى وتفريعها ، حتّى ليقول بشر بن المعتمر إنهم « فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء » (٢) . وهم لم يتقدموا معاصريهم فى الخطابة والبلاغة العملية فحسب ، بل تقدموهم أيضاً فى بحث مسائل البلاغة من الوجهة النظرية والتعليمية ، ومن ثَمّ لم يكن من المصادفة أن يلقانا أقدم تعريف دقيق لها عند عمرو بن عبيد المعتزلىّ المتوفّى سنة ١٤٤ للهجرة ، فقد عرّفها بأنها « تخير اللفظ فى حسن الإفهام » (٣) .

ونحن نلاحظ منذ أول الأمر أن المعتزلة كانوا يطلبون معرفة ما عند الأمم الأجنبية من آراء فى البلاغة ومسائلها المتشابكة ، وفى « البيان والتبيين » صحف مختلفة تصور هذا الطلب ، من ذلك أن نرى الجاحظ يسوق تعريف البلاغة عند طائفة من تلك الأمم ، فيقول :

« قيل للفارسى : ما البلاغة ؟ قال : معرفة الفصل من الوصل . وقيل لليونانى : ما البلاغة ؟ قال : تصحيح الأقسام واختيار الكلام . وقيل للرومى : ما البلاغة ؟

---

(١) الحيوان (طبعة الحلبى) ٢/١٣٤ .
(٢) البيان والتبيين ١/١٣٩ .
(٣) البيان والتبيين ١/١١٤ .

قال : حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة . وقيل للهندى : ما البلا
قال : وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة »[1] .

والفارسى إنما يشير إلى معرفة مقاطع الكلام وتمييز فِقَرِه وعباراته بعضها بعض ، بحيث تتضح أماكن الوقوف وأماكن الوصل ، وما زالت فكرته تدور أصحاب البلاغة حتى جعلوا لها فصلا خاصًّا فى علم المعانى ، وفى الصناعتين ما على أن الكتّاب كانوا يُعْنَوْنَ بمواضع الفصل وتبيينها فى الكتابة منذ صالح ابن عبد الرحمن التميمى كاتب الحجاج . وأشار اليونانى إلى أهمية اخ الألفاظ وتصحيح المعانى وخاصة من حيث التقسيم الدقيق ، ولعل ذلك ما البلاغيين إلى أن يسلكوا التقسيم فى البديع ومحاسن الكلام[2] أما الرومى فوقف البديهة الحسنة وما يقترن بها من الكلمة المواتية الموجزة ، كما وقف عند غزارة الخط ووفرة معانيه وقدرته على حوك الكلام ، بينما وقف الهندى عند وضوح المعانى والإلقاء بالكلمة فى لحظتها المناسبة ، والكناية عن المعنى حين يكون الإفصاح مَرْكَبًا عسيرا . ويذكر الجاحظ خبراً طويلا[3] عن معمَّر أبى الأشعث ، فرقة المعمَّرين من المعتزلة وكيف أنه سأل بَهْلَة الهندى — أحد أطباء الهند ال اجتلبهم يحيى بن خالد البرمكى لعهد الرشيد — ما البلاغة عند أهل الهند ؟ فقا بهلة : عندنا فى ذلك صحيفة مكتوبة ، ولكن لا أحسن ترجمتها ، ولم أ هذه الصناعة فأثق من نفسى بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها . أبو الأشعث : فلقيت بتلك الصحيفة التراجمة ، فإذا فيها :

« أول البلاغة اجتماع آلة البلاغة ، وذلك أن يكون الخطيب رابطَ الج ساكن الجوارح قليل اللحظ متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام ا ولا الملوكَ بكلام السوقة . ويكون فى قواه فضل التصرف فى كل طبقة ، ولا يدقق الم كل التدقيق ولا ينقح الألفاظ كل التنقيح ، ولا يصفيها كل التصفية ، ولا يه كل التهذيب . ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيماً أو فيلسوفًا عليماً ومَنْ قد حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ ، وقد نظر فى صناعة الم

---

(١) البيان والتبيين ١ / ٨٨ .
(٢) الصناعتين ص ٤٤٠ .
(٣) البيان والتبيين ١ / ٩٢ .

على جهة الصناعة والمبالغة لا على جهة الاعتراض والتصفح وعلى وجه الاستطراف والتطرف . واعلم أن حقّ المعنى أن يكون الاسم له طِبْقًا ، وتلك الحال له وَفْقًا ، ويكون الاسم له لا فاضلا ولا مفضولا ولا مقصرا ولا مشتركا ولا مضمّنا . ويكون مع ذلك ذاكرا لما عَقَد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره فى وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقا ، ولهولِ تلك المقامات معاودا . ومدارُ الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم والحَمْل عليهم على أقدار منازلهم ، وأن تواتيه آلاته وتتصرّف معه أداته . ويكون فى التهمة لنفسه معتدلا ، وفى حسن الظن بها مقتصدا ، فإنه إن تجاوز مقدار الحق فى التهمة لنفسه ظلمها ، فأودعها ذلّة المظلومين ، وإن تجاوز الحق فى مقدار حُسْن الظن بها آمنها فأودعها تهاون الآمنين . ولكل ذلك مقدار من الشغْل ، ولكل شغل مقدار من الوهَن ، ولكل وهن مقدار من الجهل » .

والصحيفة تطلب — بوضوح — إلى الخطيب أن يكون ثبت الجنان هادئ النفس ، حتى لا يصيبه دهش من شأنه أن يعقد لسانه ، كما تطلب إليه أن يتخير لفظه وأن يلائم بين كلامه ومستمعيه ، فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، وأن يكون فيه قدرة على إحسان جميع ضروب الكلام بحيث لا يصعب عليه وجه من وجوه القول . وتقول إنه ينبغى أن لا يتعمق فى معانيه حتى لا يُفْضِى به ذلك إلى شيء من الغموض ، وأيضًا فإنه ينبغى أن لا يسرف فى تنقيح لفظه ، حتى لا يخرج إلى أساليب غريبة ، وحتى لا تشغله ألفاظه عن المعانى التى يريد بيانها . وتمضى فتقول: إن التكلم بالكلام المصفى المنقح إنما يوجَّه لمن خبر المعانى من الحكماء والفلاسفة أو قل لعلية المثقفين ممن لا يحتاجون إلى إطناب ، ومن يعرفون حقوق الكلام ويسقطون مشتركه الذى قد يوهم بمعان غير معناه ممن حذقوا صناعة المنطق ، ولم يكتفوا بأن يلموا بأطراف منها . وتقف الصحيفة عند دقة استخدام الكلمة ووفائها بمعناها دون أن تكون زائدة أو ناقصة عنه ، ودون أن يدخلها اشتراك فلا تدل على معناها دلالة بينة ، وأيضًا دون أن تحتاج إلى ما بعدها كى تكون تامة بنفسها ، وإلا أصابها التضمينُ واحتياجُها إلى ما يليها . ومعروف أن أصحاب البلاغة العربية فيما بعد شدّدوا فى وجوب اكتفاء كل بيت فى القصيدة بمعناه ، وسموا البيت الذى يفتقر إلى ما بعده مضمّنا ، وعدّوا التضمين من أشد عيوب الشعر ، فكل بيت ينبغى أن

يستقل بمعناه استقلالاً تامًّا . وتتعرض الصحيفة بعد ذلك للمتكلم نفسه ، فتطلب إليه أن يكون ذكورا لأول كلامه حتى يجرى فيه الاتساق والالتحام ، فلا تتفكك معانيه ولا تتخلخل فقره ، وأن يكون شديد التصفح لما عقد عليه كلامه ، وأن يوازن موازنة دقيقة بينه وبين طبقات السامعين . وتنصحه الصحيفة أن لا يبالغ فى تقدير كلامه والثقة ببلاغته ، حتى لا يقعد به ذلك عن طلب الإحسان ، وكذلك تنصحه أن لا يبالغ فى اتهام كلامه بنزوله درجات عن طبقات البلغاء فإن ذلك من شأنه أن يصيبه بالعجز والهوان .

ولم ينقل الجاحظ فى بيانه صحيفة للفرس تماثل هذه الصحيفة ، ولكنه يقول : « من أراد أن يبلغ فى صناعة البلاغة . . فليقرأ كتاب كارْوَنْد »[١] ولا ندرى هل هذا الكتاب كان يحمل آراء فى البلاغة أو أنه كان يحمل بعض رسائل الفرس ، ومن يقرأ مقدمة الجهشيارى فى كتابه « الوزراء والكتاب » يرى فى وضوح أن العرب صاغوا كثيراً من رسائلهم على ضوء رسائل الفرس وبعض ما أُثر عن بُزُرْجمهر وغيره ، ولعله من أجل ذلك وضع لهم الجهشيارى فى مقدمته بعض النماذج الفارسية ، ليتخذوا منها القدوة فى عملهم ويحاكوها فى كتابتهم ، وهى محاكاة تضرب بجذورها منذ عبد الحميد كاتب الأمويين، وكان يرجع إلى أصول فارسية ، وفيه يقول صاحب الصناعتين : « ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلة الكتابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسى ، فحولها إلى اللسان العربى »[٢] . وقد حوّل ابن المقفع ومن خلفوه فى العصر كثيراً من أمثلة هذه الكتابة إلى العربية ، ومرّ بنا رأيه فى البلاغة كما مرّ بنا رأى جعفر بن يحيى البرمكى فى البيان ، فإذا قلنا إن المعتزلة كانت تحت أبصارهم آراء مختلفة للفرس عن البلاغة لم نكن مغالين . ولا شك أيضًا فى أنهم كانوا يعرفون بعض آراء اليونان فيها ، ومن المؤكد أن كتاب الخطابة لأرسطو لم يترجم حتى نهاية العصر العباسى الأول ، وكذلك لم يترجم كتابه « الشعر » وأكبر الدلالة على ذلك أن الجاحظ لم ينقل عنه أى رأى فى البلاغة أو فى البيان ، وهو دائمًا إذا ذكره فى « بيانه » لقّبه بصاحب المنطق ، وأكثر من ذلك نراه يزعم تخلف اليونانيين عن العرب والفرس جميعًا فى الخطابة[٣] ، مما يدل دلالة قاطعة على أنه

(١) البيان والتبيين ٣/١٤ .
(٢) الصناعتين ص ٦٩ .
(٣) البيان والتبيين ٣/٢٧ وما بعدها .

لم يعرف شيئًا واضحًا عن كتاب أرسطو فيها ولا عن ازدهارها عندهم . وليس معنى ذلك أن الجاحظ والمعتزلة جميعًا لم يقفوا على شيء مطلقًا من آراء اليونان فى البيان والبلاغة ، فقد كانوا يجادلون أصحاب الملل وخاصة نصارى السريان الذين كانوا يتأثرون فى عمق بالثقافة اليونانية والذين كانوا يعرفون كتابى الخطابة والشعر لأرسطو ، كما كانوا يعرفون خطابة السوفسطائيين وما كانوا يعلمونه شباب أثينا من طرق الإحسان فى الخطابة وما درَّبوهم عليه من الغلبة على الخصوم ، بحق أو بغير حق، بل لقد درَّبوهم كيف يزيفون الحق ويقبحونه وكيف يزينون الباطل ويحسنونه، وأيضًا لابد أنهم كانوا يعرفون ما جاء فى بعض محاورات أفلاطون من فكرة وجوب مطابقة الكلام لسامعيه ونفسياتهم ، وهى الفكرة التى بسطها أرسطو فى كتابه « الخطابة » بسطًا واسعًا .

لانشك إذن فى أن المعتزلة كانوا يستمعون من السريان وغيرهم إلى أصداء كثيرة من هذه الأفكار . ويظهر أنها تسربت من قديم إلى الفرس والهنود ، فحديث ابن المقفع عن البلاغة الذى تمثلنا به وصحيفة الهند يدوران حول فكرة مطابقة الكلام لسامعيه وأن لكل مقام مقالا ، وهى كما قدمنا فكرة يونانية الأصول . وفى صحيفة الهند نفسها ما يدل على صلة كاتبها بالثقافة اليونانية إذ ذكر المنطق وصناعته ، وقد ترجم ابن المقفع كما أسلفنا أجزاء من منطق أرسطو نقلها عن لغته الفارسية . ومعنى ذلك أن آراء اليونان فى البلاغة والبيان كانت تسقط إلى المعتزلة من نوافذ كثيرة ، وربما قرأوا شيئًا منها فيما نُقل إلى العربية من التراث اليونانى الذى كانوا يُكِبُّون عليه إكبابا .

على أنه ينبغى أن نلاحظ أن المعتزلة حين طلبوا معرفة آراء الأمم الأجنبية فى البيان والبلاغة لم يكونوا يقصدون إلى تمثلها واعتناقها ، إنما كانوا يريدون أن يوازنوا بين آراء الأجانب وآراء العرب فى بلاغة الكلام ، محاولين أن يضعوا للبلاغة العربية قواعدها وقوانينها الذاتية . ومعروف أنهم كانوا يدافعون عن الإسلام أمام أصحاب الملل ، فطبيعى أن لا يلقوا بعقولهم وأنفسهم فى أحضان بلاغات أجنبية ، وأن يحتاطوا أشد الاحتياط فيما يأخذونه من هذه البلاغات ، وأن لا يأخذوا منها شيئًا إلا بعد درسه وفحصه وتبين ملاءمته للبلاغة العربية . وبذلك يتضح لنا موقف الجاحظ فى

كتابه « البيان والتبيين » فهو يعرض أطرافًا قليلة من آراء الأجانب ، يُلْقى بها فى سيول من آراء العرب البلاغية وملاحظاتهم البيانية ، ملتفتًا من حين إلى حين إلى ملاحظات معاصريه وخاصة من المعتزلة . ومن طريف ما ساقه لهم تعريف العتَّابى[1] للبلاغة والبليغ ، وكان من لَسِنتهم ، كما كان شاعراً أديبًا ، وقد تعرض له بعض معاصريه يسأله عن البلاغة فقال[2] :

« كلُّ من أفهمك حاجته من غير إعادة ولا حُبْسة ولا استعانة فهو بليغ ، فإن أردتَ اللسان الذى يروق الألسنة ويفوق كلَّ خطيب فإظهارُ ما غَمُضَ من الحق وتصوير الباطل فى صورة الحق . وقال له السائل : قد عرفت الإعادة والحُبْسة ، فما الاستعانة ؟ قال : أما تراه إذا تحدث قال عند مقاطع كلامه : يا هَناه ، ويا هذا ، ويا هيه ، واسمع منى ، واستمع إلىَّ ، وافهم عنى ، أولست تفهم ، أو لست تعقل . فهذا كله وما أشبهه عِيٌّ وفساد » .

والعتَّابى لا يريد فى أول كلامه مجرد الإفهام ، وإنما يريد الإفهام بالألفاظ الفصيحة الحسنة ، وطلب من البليغ أن لا يُعيد فى كلامه فإن ذلك من شأنه أن يُدخل عليه فضول اللفظ ، كما تُدْخل عليه الحبسةُ الحصَر وعُسْر الكلام . وهو يجعل البليغ الكامل من يستطيع أن يزيل الحجاب عن غوامض الأفكار ويكشف عن خباياها بما يسلط عليها من أشعة بيانه ، ومن يستطيع بحذقه أن يحتجَّ للباطل المذموم ، حتى يصبح شبيهًا بالحق المحمود . وقد يكون الدافع له إلى الفكرة الأخيرة ما سمعه عن خطابة السوفسطائيين وإحكامهم الدفاع عن القبيح حتى ليصبح نظيراً للحسن ، وقد يكون الدافع احتدام المناظرة فى عصره بين أصحابه من المعتزلة وغيرهم من أصحاب الملل والنحل احتدامًا كان يرى فى أثنائه باطلا يصححه مناظر حاذق بلطف حيله العقلية ومداخله الذهنية . وبتأثير هذه المناظرات أخذت تشيع فعلا فى العصر فكرة تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، وظلت تنمو حتى ألفت فيها كتب خاصة هى كتب المحاسن والمساوى . ومن طريف ما أثر عن العتَّابى

(١) راجع فى ترجمة العتابى الأغانى (طبع دار الكتب) ١٣/ ١١٠ ومعجم الأدباء ١٧/ ٢٦ والشعر والشعراء ص ٨٣٩ وطبقات الشعراء لابن المعتز ص٢٦١ وتاريخ بغداد رقم ١٢/ ٤٨٨ .

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٣ .

obeikandi.com

قوله فى الألفاظ والمعانى[1] :

« الألفاظ أجساد والمعانى أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدَّمْتَ منها مؤخَّرا أو أخرت منها مقدَّمًا أفسدت الصورة وغيَّرت المعنى ، كما لو حُوِّل رأس إلى موضع يَد ، أو يَدٌ إلى موضع رجل ، لتحوَّلت الخلقة ، وتغيَّرت الحِلْية » .

وهى ملاحظة دقيقة ، فالمعنى لا يقوم بغير لفظ ، كما لا تقوم الروح بغير جسد ، فهما متلازمان تلازم الجسد والروح فى الأشخاص . ويمضى فى تمثيله ، فيطلب أن تُوضَعَ الألفاظ فى مواضعها الدقيقة ، فلا يدخلها التقديم والتأخير المفسدان ، لأنها حينئذ تُصْرف عن وجوهها ، وتفقد حسنها وجمالها ، وإنه ليحسُّ فى سوء نظمها إذا اضطرب اضطرابًا شديداً ما يحسه فى جسد الشخص الجميل لو أن أعضاءه تبادلت مواضعها وأماكنها ، إذن يصبح جسداً مشوَّهًا ، لما فقد من نظامه وتنضيده الدقيق .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن خير ما أثر عن المعتزلة فى البلاغة حتى أوائل القرن الثالث صحيفة بِشْر[2] بن المعتمر المتوفَّى سنة ٢١٠ وقد رواها الجاحظ فى البيان والتبيين تامة غير منقوصة ، ونحن نسوقها لأهميتها الشديدة فى تاريخ البلاغة ، وهى تجرى على هذا النمط[3] :

« خُذْ من نفسك ساعةَ نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فإن قليل تلك الساعة أكرمُ جوهراً وأشرف حَسَباً وأحسنُ فى الأسماع وأحْلَى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ وأجلب لكل عَيْن وغُرَّة من لفظ شريف ومعنى بديع . واعلم أن ذلك أجْدَى عليك مما يُعْطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة ، وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قَصْداً وخفيفًا على اللسان سهلا ، وكما خرج من يَنبوعه ونجم من مَعْدنه .

---

(١) الصناعتين ص ١٦١ .

(٢) راجع فى ترجمة بشر الملل والنحل للشهرستانى (طبعة كيورتن) ص ٤٤ والحيوان للجاحظ (انظر فهارسه) وأمالى المرتضى (طبعة الحلبى ١/١٨٦ ولسان الميزان ٢/٣٣ .

(٣) البيان والتبيين ١/١٣٥ وانظر الصناعتين ص ١٣٤ .

obeikandl.com

وإياك والتوعرَ ، فإن التوعر يُسْلمك إلى التعقيد ، والتعقيد هو الذى يَسْتهلك معانيك . ويشين ألفاظك . ومن أراغ معنى كريمًا فليلتمسْ له لفظًا كريمًا ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما عمَّا يُفْسدهما ويهجِّنهما ، وعما تعود من أجله أن تكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارهما ، وترتهن نفسك بملا بستهما وقضاء حقهما .

فكُنْ فى ثلاث منازل ، فإن أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقًا عذبًا وفخمًا سهلا ، ويكون معناك ظاهراً مكشوفًا وقريبًا معروفًا ، إمَّا عند الخاصَّة إن كنت للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت . والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدارُ الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصىّ . فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغة قلمك ولُطْف مداخلك واقتدارك على نفسك إلى أن تُفْهم العامة معانىَ الخاصَّة وتكسوها الألفاظ الواسطة التى لا تلطف عن الدهماء ، ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تَسْنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تَصِرْ إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تَحُلّ فى مركزها وفى نِصابها ولم تتَّصِلْ بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها فلا تُكْرِهْها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ، فإنك إذا لم تتعاط قَرْضَ الشعر الموزون ولم تتكلَّف اختيار الكلام المنثور لم يَعِبْك بترك ذلك أحد . فإن أنت تكلفتهما ولم تكن حاذقًا مطبوعًا ولا محكمًا لسانك بَصيراً بما عليك وما لك عابَك من أنت أقلُّ عيبًا منه ورأى مَنْ هو دونك أنه فوقك . فإن ابتُليت بأن تتكلف القول وتتعاطى الصَّنْعة ولم تَسْمح لك الطباع فى أول وهلة وتعاصى عليك بعد إجالة الفكرة فلا تَعْجَلْ ولا تضجر ، ودَعْه بياض يومك وسواد ليلك ، وعاوِدْه عند نشاطك وفراغ بالك فإنك لا تَعْدَمُ الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة

أوجريت من الصناعة على عِرْق . [وهى المنزلة الثانية](١) .

فإن تمنّع عليك بعد ذلك من غير حادث شُغْلٍ عرَض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحوّل عن هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك ، فإنك لم تَشْتهها ولم تنازع إليها إلا وبينكما نسب ، والشىء لا يَحِنُّ إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات ، لأن النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة ، كما تجود به مع الشهوة والمحبة .

وينبغى للمتكلم أن يعرف أقدار المعانى ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات ، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً ، حتى يَقْسم أقدار الكلام على أقدار المعانى ويقسم أقدار المعانى على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات ، فإن كان الخطيب متكلماً تجنّب ألفاظ المتكلمين ، كما أنه إن عبّر عن شىء من صناعة الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلمين ، إذ كانوا لتلك العبارات أفهم ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحنّ وبها أشغف ، ولأنّ كبار المتكلمين ورؤساء النظّارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء ، وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعانى ، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء ، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له فى لغة العرب اسم ، فصاروا فى ذلك سلفاً لكل خلف وقُدْوَةً لكل تابع ، ولذلك قالوا : العَرَض والجوهر وأيْس(٢) وليس ، وفرّقوا بين البطلان والتلاشى ، وذكروا الهذيّة والهويّة والماهية(٣) وأشباه ذلك » .

ويِشْر فى أول كلامه ينصح كل أديب سواء أكان خطيباً أم كاتباً أم شاعراً أن لا يُقبل على عمله إلا إذا كان مستعداً له استعداداً كاملا ، بحيث يكون فارغ البال من كل شىء سواه ، وبحيث يكون موفور التهيؤ له ، تام النشاط ، فإن ذلك من شأنه أن يحسن عمله وقوله ، وأن تنثال عليه المعانى والألفاظ دون تكلف ، بل مع الطواعية والسهولة إذ تصدر عنه كما يصدر الماء عن ينبوعه والشَّذى عن

---

(١) زيادة من الصناعتين ص ١٣٥ لاطراد السياق .

(٢) الأيس عند المتكلمين الوجود والإثبات ضد الليس وهو العدم والنفى .

(٣) نسبة عند المتكلمين إلى هذا ، وهو ، وماهى .

زَهْرِه . وينصح كل أديب أن يُعْنَى بتخير لفظه ، وأن يُخْليه من كل غريب متوعر وكل تركيب معقد ، ومن كل ما يفسده ويهجّنه . ويلاحظ أن من يصطنع الأدب والكلام البليغ لا يخلو من إحدى منازل ثلاث ، أولاها منزلة البليغ التام .

ويحدثنا بشر عن صفات هذا البليغ ، فيقول إنه يكسو عباراته بجمال فنى مردّه إلى رشاقة الألفاظ وعذوبتها وجزالتها وسهولتها ووضوح المعانى وانكشافها . ويلاحظ أن هذا الانكشاف والوضوح نسبي ، حسب من يوجَّه إليهم الكلام من العامة أو من الخاصة . والمهم حسن الإفهام والاقتدار على إيصال المعانى واضحة نيرة للسامعين . ويلاحظ ملاحظة دقيقة ، هى أن الألفاظ ينبغى أن تتلاءم تلاؤماً دقيقاً مع المعانى بحيث إذا كانت المعانى دقيقة تمثلتها ، وإذا كانت عاديّة أشبهتها . وينفذ إلى فكرة طريفة ، تدل على قوة بصيرته ودقة مشاعره ، إذ يقول إن شرف المعنى لا يرجع إلى أنه من معانى الخاصة أو من معانى العامة ، فكل فى مجاله شريف ، ومدار الشرف الحقيقى أن يلائم الأديب خطيباً وغير خطيب بين كلامه ومقامه . وينتهى من وصف البليغ التام إلى أنه هو الذى يستطيع ببيانه وبلاغته ودقة مسالكه إلى توضيح معانى الخاصة أن يُفْهمها العامة دون عسر أو مشقة ، بل مع تيسيرها وتبسيطها وتقريبها من أذهانهم وعقولهم ، ومع عرضها فى لغة واسطة ، لا ترتفع عن طبقاتهم ، ولا تسفل عن طبقات الخاصة ، لغة ليس فيها غرابة ولا تعقيد ولا ابتذال ، لغة تنزل من قلوب السامعين منزلة الغيث من التربة الكريمة .

وينتقل بشر إلى المنزلة الثانية ، وهى منزلة مَنْ لا تُسْعفهم طبائعهم بالألفاظ الملائمة والقوافى الجيدة والكلمات المتشاكلة بل يجدون فى ذلك عسراً أى عسر ، إذ يصعب عليهم رَصْفُ الكلم وأن يضعوا الألفاظ فى مواضعها ويجلبوا القوافى التى تتمكن فى مواطنها وتحسن فى مواقعها . ومثل هؤلاء يحسن أن يتأنّوا ، لأن طبائعهم لا تسمح لهم بالكلام الجيد مع أول خاطر ، ولأول وهلة . وإذن فليؤجّلوا المضىّ فى العمل ، وليتركوه بياض نهارهم وسواد ليلهم ، ويعاودوه عند نشاطهم واستعدادهم واكتمال تهيؤهم ، فإن كانت لهم فى الأدب طبيعة حقًّا أو كانوا ينزعون فيه عن

عِرْق فسيواتيهم الكلام منبثقًا من عروقهم وطبائعهم ، وإن لم تكن ينابيعها غزيرة

ووراء هاتين المنزلتين منزلة ثالثة هى منزلة من شحّت طبائعهم ونضبت ينابيع القول فى نفوسهم ، فهم مهما تأنّوا ومهما جهدوا فى تتبع الكلام وطلبه ، ومهما أمضوا من بياض الأيام وسواد الليالى ، ومهما تهيأوا للقول ونشطوا له وخلّصوا أنفسهم من كل شغل ، لا يقعون منه إلا على المستكره المرذول ، أو لعلهم لا يقعون على شيء أبداً . وحرىّ بأصحاب هذه المنزلة أن يهجروا صناعة الأدب ويتحولوا إلى صناعة أخرى تناسبهم وتشاكلهم لأن لكل إنسان طبيعته الخاصة التى تجعله ينزع نحو عمل معين يصلح له ولا يصلح لسواه . ومن أجل ذلك تعددت صنائع الناس وحرفهم حسب نزعاتهم ورغباتهم وميولهم المستكنة فى أعماقهم .

ويمضى بشر فيصور كيف أن المتكلم ينبغى أن يوازن موازنة تامة بين معانيه وأقدار الأحوال وأقدار المستمعين ، أو بعبارة أخرى ينبغى أن يلائم فى دقة بين كلامه وبين معانيه وموضوعاته ، كما يلائم بينه وبين المستمعين ومن يوجّه إليهم الحديث . وبشر بذلك يرسم فى دقة الفكرةَ اليونانية التى تدعو إلى الملاءمة بين الكلام وأحوال السامعين ونفسياتهم . ونراه يحاول تجسيمها ، فيقول إن الخطيب من أصحاب علم الكلام إذا خاطب أوساط الناس كان عليه أن يتحاشى فى خطابه ألفاظ المتكلمين الاصطلاحية ، لأن الجمهور لا يفهمها ، فإذا خاطبه بها فكأنما يتكلم إليه بألغاز فأما إذا خاطب أمثاله من المتكلمين فإن من حقه أن يسلك هذه الألفاظ فى كلامه ، لأن أسماعهم تَهَشُّ لها وقلوبهم إليها أحنّ وبها أشغف ، إذ هى ملتحمة بعقولهم ومتصلة بأذهانهم ومحببة إلى نفوسهم .

وبشر فى هذا كله يرينا مدى استغلال المعتزلة لملاحظات العرب والأجانب فى البلاغة ، وكيف أنهم كانوا يحاولون النفوذ من ملاحظات الطرفين إلى تبين قواعدها السديدة ، محتكمين فى ذلك إلى عقولهم الناضجة وبصائرهم النافذة .

٤

الجاحظ

لا نكاد نتقدم بعد الرُّبْع الأول من القرن الثالث الهجرى حتى يتجرّد معتزلى كبير — هو الجاحظ[١] المتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة — لدرس شئون البيان والبلاغة ، فيؤلف كتابه « البيان والتبيين » فى أربعة مجلدات كبار جامعاً فيه ملاحظات العرب البيانية وبعض ملاحظات الأجانب ، وسجل كثيراً من ملاحظات معاصريه وخاصة المعتزلة ، ونراه يطيل الوقوف عند ما أثاره بشر بن المعتمر من صفات الألفاظ والمعانى ووجوب مطابقة الكلام لسامعيه ، من ذلك قوله فى المطابقة وتفاوت الكلام بتفاوت من يُلْقَى إليهم[٢] :

« وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغى أن يكون غريباً وحشياً إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشىّ من الكلام يفهمه الوحشىّ من الناس ، كما يفهم السوقى رطانة السوقى . وكلام الناس فى طبقات كما أن الناس أنفسهم فى طبقات، فمن الكلام الجَزْل والسخيف والمليح والحسن والقبيح والسمج والخفيف والثقيل ، وكله عربى ، وبكلٍ قد تكلموا . . إلا أنى أزعم أن سخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعانى ، وقد يُحتاج إلى السخيف فى بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم من الألفاظ والشريف الكريم من المعانى » .

والجاحظ بذلك يؤكد فكرة بشر فى المطابقة غير أنه يمدها من طرف آخر غير طرف من يتوجه بخطابه إلى أصناف المتكلمين من المعتزلة وغيرهم ممن وقف عندهم بشر ، إذ أخذ يطبقها على البدو فى كلامهم وما يجرى فيه من لفظ غريب ، بل لقد مضى يقول إن سخيف المعانى إنما يشاكله سخيف الألفاظ ، فالعبرة بالمعنى والمقام وأحوال المستمعين النفسية ، لا بالألفاظ من حيث هى فى ذاتها ،

---

(١) انظر فى ترجمة الجاحظ معجم الأدباء ١٦ / ٧٤ وأمالى المرتضى ١ / ١٩٤ والملل والنحل للشهرستانى ص ٥٢ ونزهة الألبا لابن الأنبارى ص ٢٥٤ وتاريخ بغداد ١٢ / ٢١٤ وكتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف) ص ١٥٤

(٢) البيان والتبيين ١ / ١٤٤ .

وكأنما حسنها إضافى ، وهو حسن يتوقف على المعانى من جهة وعلى أحوال السامعين من جهة ثانية ومدى مشاكلتها لذلك جميعه ، وضرب مثلا بالنوادر وأنه لا يصح أن تغيَّر عن صورتها التى أدِّيَتْ فيها أداء يتفق ومن وُجِّهَتْ إليه من البدو أو العامة ، يقول(١) :

« ومتى سمعت — حفظك الله — بنادرة من كلام الأعراب فإياك أن تَحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيَّرتها بأن تَلْحَنَ في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديين خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ومُلْحة من مُلَح الحُشْوة والطَّغام فإياك أن تستعمل فيها الإعراب أو تتخيَّر لها لفظًا حسنًا أو تجعل لها من فِيك مخرجًا سَرِيًّا ، فإن ذلك يُفْسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ومن الذى أُريدتْ له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » .

وإذا كان بشر قد لاحظ قُبْح إيراد اصطلاحات المتكلمين على لسان خطباء الجماهير من أصحاب علم الكلام ، بينما تَحْسُن هذه الاصطلاحات حين يخاطبون أمثالهم من المتكلمين فإن الجاحظ يلاحظ من طرف آخر أنه يقبح بهم أن يوردوا كلام الأعراب أو كلام العامة فى ثنايا كلامهم فى صناعتهم ، يقول : « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها . . وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام والجار أو فى مخاطبة أهله . . أو فى حديثه إذا حدَّث أو فى خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو فى صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل(٢) » . وعلى هذا النحو يحاول دائماً أن يؤكد فكرة بشر مضيفاً إليها ما يوثقها ويوضحها ، ولاحظ ملاحظة دقيقة هى أن الذكر الحكيم حين يتجه بخطابه إلى العرب الفصحاء يعمد إلى الإيجاز والاقتضاب فإذا عمد إلى مخاطبة اليهود أطال وأطنب فى الكلام لنقص فصاحتهم ، يقول : « وللإطالة موضع وليس ذلك بخطَل ، وللإقلال موضع وليس ذلك من عجز . . ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحى والحذف ، وإذا خاطب

---

(١) البيان والتبيين ١/١٤٥ . (٢) الحيوان ٣/٣٦٨ .

openkarabic.com

بنى إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطًا وزاد فى الكلام »[١] .

ونراه يتوسع فى الحديث عن الإطناب والإيجاز ومواضعهما ؛ من ذلك حديثه عن الترداد والتكرار فى القصص القرآنى ومواعظ الوعاظ ، يقول : « وجملة القول فى الترداد أنه ليس فيه حدٌّ يُنْتَهَى إليه ولا يُؤْتَى على وصفه ، وإنما ذلك على قدر المستمعين ومن يحضره (الخطيب) من العوام والخواصّ . وقد رأينا الله عزَّ وجلَّ ردَّد ذكر قصة موسى وهود وهرون وشعيب وإبراهيم ولوط وعاد وثمود ، وكذلك ذِكْرَ الجنة والنار وأمورٍ كثيرة ، لأنه خاطب جميع الأمم من العرب وأصناف العجم وأكثرهم عَيِيٌّ غافل أو معاند مشغول الفكر ساهي القلب . وأما أحاديث القصص والرقّة (الموعظة) فإنى لم أر أحداً يعيب ذلك . وما سمعنا بأحد من الخطباء كان يرى إعادة بعض الألفاظ وترداد المعانى عِيًّا »[٢] . وبينما نراه يرتضى الإطناب فى الخطابة نراه لا يرتضيه فى الرسائل ، وقد وقف فى بيانه ينوه بجعفر بن يحيى البرمكي وإيجازه فى رسائله[٣] .

على أنه لم يَعْنِ بالإيجاز مجرد قِصَر الألفاظ وقلة كميتها ، وإنما أراد مساواتها الدقيقة للمعانى دون زيادة ، وقد يمتد الكلام صفحات ويسمى موجزاً ، يقول : « والإيجاز ليس يُعْنَى به قلة عدد الحروف واللفظ ، فقد يكون الباب من الكلام مَنْ أتى عليه فيما يسع بطن طومار (صحيفة كبيرة) فقد أوجز ، وكذلك الإطالة . وإنما ينبغى للمتكلم أن يحذف بقدر ما لا يكون سببًا لإغلاقه ، ولا يردد (يكرر) وهو يكتفى فى الإفهام بشطره ، فما فضل على المقدار فهو الخطل »[٤] . وواضح أنه كما ينكر أن يكون الإيجاز بقصر الكلام ينكر أن يكون الإطناب باتساع القول من حيث هو ، فقد يكون الاتساع فيه من باب الإيجاز ، وقد يكون الكلام قصيراً ومع ذلك يُعَدُّ مطنبًا ، فالعبرة بالمواقف والمقامات . وكان يرى بين كتب الفلاسفة وخاصة كتاب المنطق لأرسطو ما بُنى على الإيجاز الشديد حتى لتستغلق معانيه ، وأيضًا كان يرى فى أعمال بعض المترجمين قصوراً فى اللفظ والأداء ، فتنبّه إلى أن هناك ضربين من الإيجاز : ضربًا يدخل فى البيان البليغ ، وضربًا مخلاًّ يفسد

---

(١) الحيوان ١/٩٣ وما بعدها .
(٢) البيان والتبيين ١/١٠٥ .
(٣) البيان والتبيين ١/١٠٥ وما بعدها .
(٤) الحيوان ١/٩١ .

obeikandl.com

العبارة بما يُجرى فيها من الغموض والاستغلاق الشديد، ومن أجل ذلك دعا أصحاب الكلام وخاصة من المصنِّفين إلى أن لا يُصَفوا كلامهم ويبالغوا فى تصفيته حتى لا ينطقوا إلا بِلُبِّ اللب وباللفظ الذى قد حُذِف فضوله وأُسْقط زوائده، فإن من يصنع ذلك ويسرف فيه حرى به أن لا يُفْهَم عنه إلا أن يجدد الإفهام مراراً وتكراراً، وقد حمل على كتب الأخفش وما يجرى فيها من تصعيب وتعقيد شديد[١].

وواضح من ذلك أن الجاحظ لم يقف بفكرة الإيجاز والإطناب عند صيغ الكلام صنيع البلاغيين المتأخرين، بل مدَّ أطنابهما، فنظر من خلالهما فى أساليب الخطباء والكتاب وأساليب المصنفين والمترجمين وما تُرْجم من بعض آثار أرسطو. وكان واضحاً فى نفسه أن أساليب أصحاب الفن الواحد تختلف باختلافهم، فليس أسلوب زهير ومدرسته البيانية كأسلوب من يندفعون فى نظم الشعر معتمدين على الطبع وعفو الخاطر[٢]. وهداه نفاذ بصيرته إلى أن يلاحظ أن لكل أديب ناثرا أو شاعراً معجمه اللغوى الخاص الذى يردده فى كلامه، وإنما ألهمه ذلك بشر ابن المعتمر حين لاحظ أن للمتكلمين ألفاظاً خاصة بهم تدور على ألسنتهم وفى بيئتهم وأنه حرى بهم أن لا يسلكوها فى كلامهم للعامة، يقول: «ولكل قوم ألفاظ حظيت عندهم، وكذلك كل بليغ فى الأرض وصاحب كلام منثور وكل شاعر فى الأرض وصاحب كلام موزون فلابد من أن يكون قد لهج وألف ألفاظاً بأعيانها ليديرها فى كلامه، وإن كان واسع العلم غزير المعانى كثير اللفظ»[٣].

وعلى نحو استغلاله لفكرة مطابقة الكلام لمعانيه وللأحوال المختلفة وطبقات المستمعين التى صوَّرها بشر مضى يستغل ما تحدث عنه من صفات الألفاظ والمعانى وما أشار إليه من التكلف فى القول وأن يكون الأسلوب وسطاً بين لغة العامة ولغة الخاصة، وأن تشفَّ الألفاظ عن معانيها، حتى ليسابق المعنى اللفظ، فلا ينفذ الكلام إلى السمع إلا وتنفذ معه المعانى إلى القلب، يقول[٤]:

«وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه فى ظاهر لفظه . . وإذا

---

(١) انظر فى ذلك الحيوان ١/٨٨ وما بعدها.

(٢) البيان والتبيين ٢/٩، ١٣.

(٣) الحيوان ٣/٣٦٦.

(٤) البيان والتبيين ١/٨٣.

obeikandi.com

كان المعنى شريفًا واللفظ بليغًا وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه ومنزّهًا عن الاختلال مصونًا عن التكلف صنع فى القلوب صنيع الغيث فى التربة الكريمة » .

ويقول[١] :

« ومتى شاكل – أبقاك الله – اللفظُ معناه وأعرب عن فحواه ، وكان لتلك الحال وَفْقًا ، ولذلك القَدْر لِفْقًا ، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينًا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع . . وأن لا تزال القلوب به معمورةً والصدور مأهولة . ومتى كان اللفظ أيضًا كريمًا فى نفسه ، متخيّراً من جنسه ، وكان سليما من الفضول وبريئًا من التعقيد حُبِّبَ إلى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول وهشّت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخفّ على ألسن الرواة وشاع فى الآفاق ذكره . . ومن أعاره الله من معونته نصيبًا وأفرغ عليه من محبته ذَنوبًا[٢] جُلبت إليه المعانى وسَلِسَ له النظام ، فكان قد أعفى المستمع من كَدّ التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم » .

وأكثر فى بيانه من الحديث عن جزالة الألفاظ وفخامتها ورقتها وعذوبتها وخفتها وسهولتها ، ونشر ذلك فى كل جانب من الكتاب ، وكأنما رأى من تتمة الكلام عن صفاتها أن يعرض لحروفها التى هى جوهرها ملاحظًا أن منها ما لا يقترن بعضه إلى بعض فى الكلام[٣] وأيضًا فإنه عرض لتلاقى الكلمة مع الكلمة ، ملاحظًا أن من الألفاظ ما يتنافر بعضه من بعض ، حتى لقد شبّهها بعض معاصريه بأولاد العلّات ، ويطيل الوقوف إزاء بعض أشعار يشتد فيها التنافر بين ألفاظها ، لينكشف للقارئ ما فيها من ثقل ومئونة على اللسان ، لأن الكلمة لم تُقْرَنْ إلى أختها ، ولم يُجْمع لها ما ينعقد معها فى سلكها[٤] ، وأدّاه الوقوف عند أصوات الألفاظ إلى الإطالة فيما يعترى اللسان من لثغات ولكنات[٥] ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع . ونراه يتنبّه فى دقة إلى مواقع الألفاظ فى الذكر الحكيم وكيف أن الكلمة المرادفة لأخرى لا يصح أن تستخدم مكانها ، بل إن صيغة لكلمة ينبغى

---

(١) البيان والتبيين ٢/٧ وما بعدها .

(٢) الذنوب : الدلو الممتلىء .

(٣) البيان والتبيين ١/٦٩ .

(٤) البيان والتبيين ١/٦٥ .

(٥) نفس المصدر ١/٣٤ .

أن لا تتغيّر وأن تظل على صورتها من الإفراد أو الجمع ، وأيضًا فإن الكلمات كأفراد الأسرة ، أو على الأقل منها ما تقوم بينها واشجة الرحم ، يقول[١] :

« وقد يستخفُّ الناس ألفاظًا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن الجوع إلا فى موضع العقاب أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر . والناس لا يذكرون السَّغَب ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة . وكذلك ذِكْر المطر ، لأنك لا تجد القرآن يَلْفِظ به إلا فى موضع الانتقام . والعامة وأكثر الخاصة لا يَفْصلون بين ذكر المطر وبين ذكر الغيث . ولفظُ القرآن الذى عليه نزل أنه إذا ذكر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذكر سبع سموات لم يقل الأرضين ، ألا تراه لا يجمع الأرض أرَضين ولا السَّمْعَ أسماعا . والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقَّدون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال . . وفى القرآن معان لا تكاد تفترق مثل الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف ، والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والأنصار ، والجن والإنس » .

ومن أطرف ما تنبَّه إليه إنكاره أن تكون دلالة الألفاظ المترادفة واحدة ؛ فلكل لفظة منها داخل سلكها دلالتها الخاصة ، يقول[٢] :

« ويُقال فلان أحمق ، فإذا قالوا مائق فليس يريدون ذلك المعنى بعينه ، وكذلك إذا قالوا أنْوك ، وكذلك إذا قالوا رقيع . ويقولون فلان سليم الصدر ، ثم يقولون غَبِيٌّ ، ثم يقولون أبله . وكذلك إذا قالوا معتوه ومسلوب وأشباه ذلك . . وهذا المأخذ يجرى فى الطبقات كلها من جود وبخل وصلاح وفساد ونقصان ورجحان» .

وأنكر مراراً وتكراراً التكلف فى القول ، وفرَّق بينه وبين التنقيح[٣] ، فالتنقيح إنما يعنى تخير اللفظ الجيد ، أما التكلف فيعنى اغتصاب الألفاظ وقهرها ، حتى يتبين فيها الاستكراه والتعقيد . ونراه يحمل حملا ت شعواء على غرابة الألفاظ ومن يتشبهون بالبدو الجُفاة فى استخدام الآبد الوحشى ، وقد عمد إلى الاستشهاد بطائفة من نثرٍ حُشى بالغريب ، ولم يلبث أن أعلن النكير على من

(١) البيان والتبيين ١ / ٢٠ .
(٢) نفس المصدر ١ / ٢٥٠ .
(٣) الحيوان ١ / ٨٨ وقارن بالبيان والتبيين ١ / ٨٣ .

يرويه قائلا : « إن كانوا إنما رووا هذا الكلام لأنه يدلّ على فصاحة فقد باعده الله من صفة البلاغة والفصاحة ، و إن كانوا إنما دوّنوه فى الكتب وتذاكروه فى المجالس لأنه غريب فأبيات من شعر العجّاج وشعر الطِّرِمّاح وأشعار هذيل تأتى لهم مع حُسْن الرَّصْف على أكثر من ذلك »[١] .

وأكثر من الحديث عن حسن الصَّوْغ وكمال التركيب ودقة تأليف اللفظ وجمال نظمه ، وأدّاه شغفه بجودة اللفظ وحسنه وبهائه إلى أن قدّمه على المعنى ، يقول : « المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء وفى صحة الطبع وجودة السبك ، وإنما الشعر صياغة وضرب من التصوير »[٢]. وتعريفه للشعر على هذا النحو يدل على أنه كان يدخل التصوير وما يُطْوَى فيه من أخيلة فى الصياغة واللفظ . وقد يكون فى ذلك ما يخفف حدة الظن بأنه قدم الألفاظ من حيث هى على المعانى ، إنما كان يريد الأسلوب بمعنى أوسع من رصف الألفاظ ، إذ أدخل فيه الأخيلة والتصاوير . وكأنما أحسّ فى عمق أن المعانى وحدها لا تكوّن الكلام البليغ ، فهؤلاء المترجمون ينقلون معانى دقيقة لفلاسفة اليونان وغيرهم ؛ ومع ذلك لا يمكن أن يتصف كلامهم ولا ما نقلوه بالبلاغة . فكلامهم يحمل معانى صحيحة ولكن ينقصها حائط البلاغة العتيد من حسن السبك وجمال الرصف والنظم . وأدّاه إحساسه العميق بروعة النظم وما يكسبه الكلام من الماء والرونق والحيوية والنّضْرة والروعة إلى أن يصيح فى معاصريه إن إعجاز القرآن الكريم فى نظمه ، وألّف فى ذلك كتابًا سقط من يد الزمن ، وكرر فى مواضع من كتاباته هذا الرأى من مثل قوله : « فى كتابنا المنزّل الذى يدلنا على أنه صدقٌ نَظْمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد »[٣] على أنه لم يُسْقط المعانى جملة ، فقد كان يرى رأى العتابى من أنها تحلّ من الألفاظ محل الروح من البدن[٤] .

ودفعه الاحتفال بأصوات الكلام إلى أن يتحدث عما يدخل فى تقطيعه من

---

(١) البيان والتبيين ١/٣٧٨ .

(٢) الحيوان ٣/١٣١ .

(٣) الحيوان ٤/٩٠ .

(٤) مجموع رسائل الجاحظ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٨٥ .

obeikandl.com

أسجاع ، ونراه يفرد لها فى بيانه فصولا مختلفة[١] ينوه فيها بتأثير السجع فى نفوس السامعين مورداً بعض نماذجه ، وأيضًا نراه يتحدث عن الازدواج[٢] ، وكان يلهج به فى كلامه ، كما كان يلهج به كثير من معاصريه . وأشار إلى اقتباس الخطباء لآى الذكر الحكيم فى كلامهم ، وأنهم قد يتمثلون بالشعر فى خطبهم ، وأيضًا يتمثل به الكتاب فى رسائلهم إلا أن تكون إلى الخلفاء[٣] . ونوّه بالتقسيم وجودته ، وعلل به استحسان عمر بن الخطاب لبعض شعر زهير وعَبْدة بن الطَّبيب ، يقول[٤] :

« ولقد أنشدوه شعراً لزهير — وكان لشعره مقدِّمًا — فلما انتهوا إلى قوله :

وإن الحقّ مَقْطعه ثلاثٌ   يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ[٥]

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ، وإقامته أقسامها :

وإن الحقَّ مَقْطعه ثلاثٌ   يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

يردِّد البيت من التعجب . وأنشدوه قصيدة عَبْدة بن الطبيب الطويلة التى على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمَرْءُ ساعٍ لشىءٍ ليس يُدْركه   والعَيْشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأْميلُ

قال عمر متعجبًا : (والعيش شُحّ وإشفاقٌ وتأميل) يعجِّبهم من حسن ما قسَّم وفصَّل »

ووقف الجاحظ عند طائفة من اللغز فى الجواب ، وأدرج فيها ما سُمى فيما بعد باسم الأسلوب الحكيم من مثل قول الحجاج لرجل من الخوارج : أجمعت القرآن ؟ قال : أمفرَّقًا فأجمعه ؟ قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بل أقرؤه وأنا أنظر إليه ، قال : أفتحفظه ؟ قال : أخشيت فراره فأحفظه[٦] . وبهذا الفصل هيأ الجاحظ لحديث البلاغيين فيما بعد عن اللغز وعن الأسلوب الحكيم جميعًا .

(١) البيان والتبيين ١/٢٨٤ ، ٢٩٧ ، ٤٠٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢/١١٦ .

(٣) البيان والتبيين ١/١١٨ .

(٤) البيان والتبيين ١/٢٤٠ .

(٥) النفار : المنافرة إلى حكم يقضى بينهم .

(٦) البيان والتبيين ٢/١٤٨ .

وتنبه لما سماه البلاغيون بعده باسم الاحتراس ، وقد سماه إصابة المقدار ، يقول : « وقال طرفة فى المقدار وإصابته :

فسقى ديارك – غير مفسدها – صوبُ الربيع وديمةٌ تهمي

طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضارّ »(١) . وتحدث عن « الهزل يراد به الجد » أو يدخل فى الجد ، ومثّل له بقول إبراهيم بن هانئ : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ويكون شيخا بعيد مدى الصوت . ومن تمام آلة الزمر أن تكون الزامرة سوداء ، ومن تمام آلة المغنى أن يكون فاره البرذون (الدابة الكبيرة) براق الثياب عظيم الكبر سيئ الخلق ، ومن تمام آلة الخمار أن يكون ذميا .. »(٢) . وأشار فى غير موضع إلى الاعتراض والتعريض والكناية ، ومن قوله : « إذا قالوا فلان مقتصد فتلك كناية عن البخل ، وإذا قيل للعامل (الوالى) مستقص فذلك كناية عن الجور(٣) . ومن حديثه فى البيان والتبيين عن الاستعارة تعليقه على قول الشاعر :

يا دارُ قد غيّرها بِلاها كأنما بقلمٍ محاها
وطفِقتْ سحابةٌ تغشاها تبكى على عِراصها عيناها

يقول : « طفقت يعنى ظلت . تبكى على عراصها عيناها ، عيناها هاهنا للسحاب ، وجعل المطر بكاء من السحاب على طريق الاستعارة وتسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه »(٤) . ونظن ظنا أن تحليله لاستعارة هذا البيت وما يماثله هى التى جعلت البلاغيين فيما بعد ينظمون مثل هذه الاستعارة فى باب الاستعارة التصريحية التبعية ، إذا أجروا الاستعارة فى القرينة أى فى مثل تبكى فى البيت ، وقد يجعلونها فى باب الاستعارة المكنية ، إذا أجروا الاستعارة فى السحابة ، على نحو ما هو معروف مشهور . وكأن الجاحظ هو المسئول عن إدخال مثل هذه الصورة فى باب الاستعارة ، وكان يحسن به أن يفردها عنها ، لأن الشاعر حين يجعل السحابة تبكى لا يشبه ولا يستعير وإنما يشخص ويبث الحياة والمشاعر فى عنصر من عناصر

---

(١) البيان والتبيين ١/٢٢٨ .
(٢) البيان والتبيين ١/٩٣ .
(٣) نفس المصدر ١/٢٦٣ .
(٤) البيان والتبيين ١/١٥٢ وما بعدها .

الطبيعة ، وسنرى المتأخرين يضطربون إزاء هذه الاستعارة اضطراباً شديداً .

وحديثُ الجاحظ عن الصور البيانية فى كتابه الحيوان أغنى وأغزر من حديثه عنها فى البيان والتبيين ، ذلك أنه عرض فيه لتأويل بعض آى الذكر الحكيم راداً على مطاعن الملاحدة ، وما كانوا يثيرون من شُبهات حولها ، بسبب جهلهم بوجوه التعبير الأدبى فى العربية ودلالات صوره البلاغية . ونوّه بعمل المعتزلة فى هذا الصدد ، فقال : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختُطفت واستُرقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون »[١] . وأخذ فى غير موضع يزيف مزاعم الملاحدة إزاء بعض الآيات الكريمة مبيناً نقص معرفتهم بتصاريف اللغة وضروب استعمالها . وطلب إلى كل من يريد الوقوف على معانى الكتاب والسنة وقوفاً دقيقاً أن يفقه أسرار العربية ودلالات ألفاظها وصيغها فقهاً حسناً ، ومن قوله فى ذلك : « للعرب أمثال واشتقاقات وأبنية وموضع كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضع أخر ، ولها حينئذ دلالات أخَر ، فمن لم يعرفها جهِل تأويل الكتاب والسنة والشاهد والمثل »[٢] .

وقد توقّف مراراً فى الحيوان وخاصة فى جزءيه الرابع والخامس يكشف عن الدلالات الدقيقة للآيات ، وأشار فى ثنايا ذلك لما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات ، وكذلك صنع فى تعليقه على بعض الأشعار . وقد أكثر من ذكر التشبيه بنفس معناه الاصطلاحى[٣] ، وكذلك صنع بالاستعارة وهى عنده من باب المجاز ، ومن طريف تصويره لها تعليقه على الآية الكريمة : (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيَصْلَوْن سعيرا) إذ قال : إنها من باب المجاز والتشبيه على شاكلة قوله تعالى : (أكّالون للسحْت) يقول : « وقد يُقال لهم ذلك وإن شربوا بتلك الأموال الأنبذة ولبسوا الحُلل وركبوا الدوابّ ولم يُنفقوا منها درهما واحداً فى سبيل الأكل . وقد قال الله عزّ وجلّ فى تمام الآية : (إنما يأكلون فى بطونهم ناراً) وهذا مجاز آخر » . ويمضى فيقرن بالآية الكريمة بعض آيات أخرى من التنزيل وبعض أشعار العرب التى تجرى مجراها فى الاستعارة ، ويعقب بقوله :

---

(١) الحيوان ٢٨٩/٤ .

(٢) الحيوان ١٥٣/١ .

(٣) انظر فهرس الحيوان فى الجزء السابع ص ٦٢٩ .

« فهذا كله مختلف وهو كله مجاز »[١] . ونراه يدخل الاستعارة التمثيلية هى الأخرى فى المجاز ، إذ يقول : « ونار تأتى على طريق المثل لا على طريق الحقيقة »[٢] نحو قول ابن ميّادة :

ونار اه نارٌ نارُ كَلٍّ مُدَفَّعٍ وأخرى يُصيب المجرمين سَعيرُها[٣]

واستعماله لكلمتى الحقيقة والمجاز فى الحيوان يدخل فى استعمال البلاغيين المتأخرين ، فقد استعملهما بمعناهما الدقيق ، ولعل فى ذلك ما يدل على أن ابن تيمية أخطأه التوفيق حين زعم أن تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز تقسيم حادث بعد القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، أما ما رجّحه من أن حدوث هذا التقسيم كان من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين فهو صحيح إلى أبعد غاية .[٤]

ونرى من كل ما قدمناه أن الجاحظ قد ألمّ فى كتاباته بالصور البيانية المختلفة وبكثير من فنون البديع ، غير أنه لم يَسُق ذلك فى تعريفات وتحديدات ، فقد كان مشغولا بإيراد النماذج البلاغية ، وقلما عنى بتوضيح دلالة المثال على القاعدة البلاغية التى يقررها . وتحدث عن البديع الذى شاع بين شعراء عصره فقال : « والبديع مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة وأرْبَتْ على كل لسان ، والرّاعى كثير البديع فى شعره ، وبشّار حسن البديع والعتّابى يذهب شعره فى البديع »[٥] ولعله لم يكن جادّاً كلّ الجِد حين خصّ العرب بالبديع ، لأن كل أدب لا يخلو من تشبيه واستعارة وغير ذلك من فنون البديع ، إلا أن يكون إكثار معاصريه منه هو الذى دفعه لمثل هذا الحكم . وربما كان ذكره للراعى بين أصحاب البديع وهو شاعر أموى هو الذى أوحى لابن المعتز بفكرته التى دعا لها فى كتابه « البديع » ونقصد فكرة أن المحدثين قد سُبقوا فى البديع من قديم ، سبقهم إليه الإسلاميون من أمثال الراعى ، بل أيضاً الجاهليون . وما نشك فى أن كثيراً من الفنون التى صوّرها ابن المعتز فى كتابه التقطه التقاطاً من كتابات الجاحظ إما منه مباشرة ، وإما ممن نقل عنهم آراءهم فى البلاغة ومحاسنها المختلفة .

---

(١) الحيوان ٥/٢٥ — ٢٨ .
(٢) الحيوان ٥/١٣٣ .
(٣) الكل : من يعوله غيره . المدفع : الفقير المهين
(٤) كتاب الإيمان ص ٣٤ .
(٥) البيان والتبيين ٤/٥٥ .

ونَصَّ ابن المعتز فى لون أساسى من ألوان البديع الخمسة التى بَنَى عليها كتابه ، وهو المذهب الكلامى ، على أن الجاحظ هو الذى سمَّاه بهذا الاسم[١] ، ولم يحدِّد ابن المعتز المذهب ، بل اكتفى بذكر بعض أمثلة وشواهد تصوره ، وقد ظن بعض السابقين والمعاصرين أن الجاحظ وابن المعتز جميعًا يريدان به القياس المضمر الذى يُحْذَفُ فيه حدُّه الأصغر ، غير أن من يرجع إلى الأمثلة التى ساقها ابن المعتز يرى فى وضوح أن دلالة المذهب عنده كانت أوسع من ذلك . وأكبر الظن أنه هو والجاحظ جميعًا يريدان به طريقة المتكلمين العقلية فى الاحتجاج والجدل والاحتيال للعلل والمعاذير ، وربما شهد لذلك قول الجاحظ : «لولا استعمال المعرفة لما كان للمعرفة معنى ، كما أنه لولا الاستدلال بالأدلة لما كان لوضع الدلالة معنى . . وللعقل فى خلال ذلك مجال ، وللرأى تقلب ، وتنشأ للخواطر أسباب ، ويتهيأ لصواب الرأى أبواب »[٢] .

وقد ظلت كتابات الجاحظ وملاحظاته فى البيان والبلاغة مَعينًا لا ينفد لمدِّ الأجيال التالية بكثير من قواعدهما ، كلٌّ يستمدُّ منها حسب قدرته ومهارته الذهنية . وقد نعجب حين نرى كثيرين من أصحاب البحث البلاغى يُعْنَوْن بمسألة السرقات الشعرية ، ولكن عجبنا سرعان ما يزول حين نجد الجاحظ إمام البلاغة الأول يمهد لذلك بقوله : « لا يُعْلَمُ فى الأرض شاعر تقدم فى تشبيه مصيب تام وفى معنى غريب عجيب أو فى معنى شريف كريم أو فى بديع مخترع إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده أو معه إن هو لم يَعْدُ على لفظه فيسرق بعضه أو يدَّعيه بأسره فإنه لا يدع أن يستعين بالمعنى ويجعل نفسه شريكًا فيه ، كالمعنى الذى تتنازعه الشعراء فتختلف ألفاظهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحد منهم أحقَّ بذلك المعنى من صاحبه ، أو لعله أن يجحد أنه سمع بذلك المعنى قط ، وقال : إنه خَطَر على بالى من غير سماع كما خطر على بال الأول »[٣] . وكأنما تحوَّل كل ما نثره فى كتاباته من شئون البلاغة والبيان إلى ما يشبه نجومًا قطبية ثابتة ، لا تزال تُرْسِلُ أضواءها فى أبحاث البلاغيين .

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله إن الجاحظ يُعَدُّ — غير منازِع —

---

(١) كتاب البديع ص ٥٣ .
(٢) الحيوان ١١٥/٢ .
(٣) الحيوان ٣١١/٣ .

مؤسس البلاغة العربية ، فقد أفرد لها لأول مرة كتابه « البيان والتبيين » ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه . وتعمق وراء عصره ، فحكى آراء العرب السابقين ، والتمس آراء بعض الأجانب ، أو قل سجلها ، وقد مضى ينثر فى كتابه « الحيوان » تحليلات لبعض الصور البيانية فى الذكر الحكيم . وليس من شك فى أن كتابه المفقود الذى صنفه فى « نظم القرآن »[1] كان يشتمل على كثير من ملاحظاته البلاغية . وهو حقا لم يكن يُعْنَى بوضع ملاحظاته فى شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة ، ولكنه صورها فى أمثلة متعددة بحيث تمثلها من خلفوه تمثلا واضحا .

٥

لغويون مختلفون

رأينا اللغويين فى العصر العباسى الأول يشاركون فى الملاحظات البلاغية فى ثنايا تعليقاتهم على نصوص الشعر وآى الذكر الحكيم . وتأثرهم فى هذا الاتجاه كثيرون ممن خلفوهم ، ولعل أهمهم ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ للهجرة والمبرد المتوفى سنة ٢٨٥ وثعلب المتوفى سنة ٢٩١ . أما ابن قتيبة[2] فإنه نثر جملة ملاحظاته فى كتابه « تأويل مشكل القرآن » وقد صنفه للرد على الملاحدة وأشباههم الذين يَطْعنون على القرآن الكريم ، فيقولون إن به تناقضا وفساداً فى النظم واضطرابا فى الإعراب ، وهو طعن مرده إلى جهلهم بأساليب العربية ، ومن ثم ألف كتابه ، ليحق الحق ويبطل الباطل ، عارضا فيه بعض آى الذكر الحكيم مستشهداً لها بنصوص الشعر ، ليقيم الدليل على ما يقوله ويسقط دعوى الطاعنين ويمحوها . وكأنه يستمد فى ذلك من عمل الجاحظ فى الحيوان إزاء بعض الآيات القرآنية ورده على مطاعن الملاحدة ، بتوجيه معناها السديد وبيان دلالاتها من خلال المجاز والاستعارة على طريقة العرب فى التعبير والاستعمال ، فهو يتفق معه فى الاتجاه ، وإن كان يختلف معه

(١) انظر إشارة إلى هذا الكتاب فى الحيوان ٨٦/٣ .

(٢) راجع فى ترجمة ابن قتيبة تاريخ بغداد ١٠/ ١٧٠ وتذكرة الحفاظ ٢/ ١٨٧ ولسان الميزان ٣/ ٣٥٧ وإنباه الرواة ٢/ ١٤٣ وما به من مراجع .

فى التطبيق ، إذ كان ابن قتيبة سُنّيًّا محافظًا ، وكان الجاحظ معتزليًّا ، وكراهية ابن قتيبة للمعتزلة مشهورة .

وهو إنما تأثر الجاحظ فى ظاهر عمله من الرد على الملاحدة ، أما بعد ذلك فإنه تأثّر فى باطن عمله وصوغ أفكاره أبا عبيدة فى مصنفه « مجاز القرآن » إذ مضى يعرض صور الآيات القرآنية المشكلة متأثراً إلى أبعد حد بما ساقه من صيغها ووجوه تعبيرها ، مما سماه أبو عبيدة المجاز ، وكأنما يتحدث بلسانه ومضمون آرائه حين يصور مباحث مصنّفه وجهل الملاحدة بمعرفة أسرار العربية قائلا(١) :

« وللعرب المجازات فى الكلام ومعناها طرق القول ومآخذه ، ففيها الاستعارة والتمثيل والقلب والتقديم والتأخير والحذف والتكرار والإخفاء والإظهار والتعريض والإفصاح والكناية والإيضاح ومخاطبة الواحد مخاطبة الجميع ، والجميع خطاب الواحد ، والواحد والجميع خطاب الاثنين ، والقصد بلفظ الخصوص لمعنى العموم وبلفظ العموم لمعنى الخصوص ، مع أشياء كثيرة ستراها فى أبواب المجاز » .

وكأن كلمة المجاز عند ابن قتيبة لا تزال تُستخدم بمعناها الواسع الذى استخدمها فيه أبو عبيدة ، وقد مضى يعرض صوراً منه ذاكراً أنها مبثوثة فى الكتب السماوية ، وعرض لصور قرآنية مما يدخل فى المجاز المرسل والاستعارة ، وتحدث عن المقلوب وهو أن يوصف الشىء بضد صفته كتسميتهم اللّديغ سليما والفلاة مفازة . وخرج من ذلك إلى التقديم والتأخير فى مثل الآية الكريمة : (فضحكت فبشرناها بإسحق) أى بشرناها بإسحق فضحكت . وتحدث عن الحذف والاختصار فى مثل : (واسأل القرية التى كنا فيها) أى سَلْ أهلها ، وعن تكرار الكلام والزيادة فيه ، كتكرار القصص فى القرآن ، وعن التعريض والكناية وقسمها أقساماً ، وعن مخالفة ظاهر اللفظ معناه فى مثل (ومكروا ومكر الله) وقد سمّى البلاغيون ذلك باسم المشاكلة . ويقول : ومنه أن يأتى الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير أو تعجب أو توبيخ أو يأتى على لفظ الأمر وهو تهديد أو تأديب أو إباحة . ومنه عام يراد به خاص وجمع يراد به واحد وواحد يُراد به جمع وأن يوصف الجميع بصفة الواحد ، أو يوصف الواحد بصفة الجميع ، وأن يعود الضمير على شيئين وهو لأحدهما ، أو على واحد

(١) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة بتحقيق السيد أحمد صقر (طبعة الحلبى) ص ١٥ .

من اثنين وهو لهما جميعًا . ويفيض فى تفسير بعض آى الذكر الحكيم مصوراً وجوهًا من المجاز والبيان . ويعقد فصلا للألفاظ المتعددة المعانى مبينًا أن المعانى ترجع فى كل لفظة إلى معنى أصلى واحد ، كما يعقد فصلا آخر لحروف المعانى مثل كيف وما تخرج إليه ، ويعرض لتبادل الحروف فى العبارات فمن مثلا تأتى بدلا من عن . وبذلك ينتهى الكتاب .

ومن الحق أن ابن قتيبة لم يضف جديداً ذا بال بالقياس إلى أبى عبيدة إلا ما عُرِف به من دقة التبويب ، وإلا بعض إشارات وبعض تفاصيل هنا وهناك ، كأن يتوسع فى الحديث عن الكناية[1] أو يعرض للمبالغة[2] . وقد مضى فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » يُسَوِّى بين اللفظ والمعنى فى البلاغة ، وكأنه يريد أن يردّ على الجاحظ مذهبه فى تقديم اللفظ على المعنى من حيث بلاغة الكلام ، فقد جعل للمعنى مزيته هو الآخر فى البلاغة ، وقسم الكلام على هذا الأساس إلى ما حَسُنَ لفظه ومعناه وما حسن لفظه دون معناه وما حسن معناه دون لفظه وما ساء وقبح فى لفظه ومعناه جميعًا ، وإن كان لم يقف عند القسم الأخير ، لأنه لا يدخل فعلا فى الكلام البليغ .

ونجد للمبرد[3] معاصره ملاحظات بيانية تتخلّل كتابه « الكامل » من حين إلى حين ، وهو فيه يعرض نماذج أدبية شعرية ونثرية كثيرة ، مُتْبِعًا لها بالشرح اللغوى ، ومشيراً أحيانًا إلى ما فى الكلام من استعارة أو التفات أو إيجاز أو إطناب أو تقديم أو تأخير ، ويذكر أحيانًا كلمة المجاز ولكن بالمعنى اللغوى ، وقد وقف عند الكناية وجعلها على ثلاثة[4] أوجه ، فهى إما للتعمية والتغطية ، وإما للرغبة عن اللفظ الخسيس المفحش إلى ما يدل على معناه من غيره ، وإمّا للتفخيم والتعظيم . وفصّل الحديث فى التشبيه تفصيلا لعله لم يُسْبَق إليه ، ساق فيه أمثلة كثيرة ، قد وزّعه على أربعة[5] أنواع : تشبيه مفرط ، وتشبيه مصيب ، وتشبيه مقارب ، وتشبيه بعيد . وربما كان أهم

---

(١) تأويل مشكل القرآن ص ١٩٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣) انظر فى ترجمة المبرد أخبار النحويين البصريين للسيرافى ص ٩٦ وتاريخ بغداد ٣/٣٨٠ ومعجم الأدباء ١٩/١١١ وإنباه الرواة ٣/٢٤١ وما به من مراجع .

(٤) الكامل (طبعة رايت) ص ٤١٢ .

(٥) الكامل ص ٥٠٦ .

ما خلّفه للبلاغيين من بعده ملاحظته تنوع أضرب الخبر والمعنى واحد ، ذلك أن الكندى الفيلسوف قال له يوماً : إنى أجد فى كلام العرب حشواً : يقولون : عبدُ الله قائم ، وإن عبد الله قائم ، وإن عبد الله لقائم ، والمعنى واحد . فأجابه قائلا : بل المعانى مختلفة ، فعبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وإن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وإن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر[1] . وقد فتح البلاغيون لهذه الإجابة فصلا فى علم المعانى سموه « أضرب الخبر » وسموا الخبر الأول فى سؤال الكندى وإجابة المبرد ابتدائيّاً ، والثانى طلبيّاً ، والثالث إنكاريّاً .

وصنف ثعلب[2] كُتَيِّباً صغيراً أسماه « قواعد الشعر » وعنده أنها أربعة : أمر ونهى وخبر واستخبار ، وبعد أن مثّل لها تحدّث عما تجرى فيه من المديح والهجاء والرثاء والاعتذار والتشبيب والتشبيه واقتصاص الأخبار . وأخذ يعرض لبعض وجوه البلاغة ، فتحدث عن المبالغة وسماها « الإفراط فى الإغراق » كما تحدث عن الكناية وسماها « لطافة المعنى » وأيضاً فإنه تحدث عن الاستعارة ، وعن حسن الخروج من النسيب ووصف الإبل إلى المديح . وعرض لجزالة الألفاظ وجمال النظم ، ولفرائد من الأبيات أعطاها أسماء مختلفة . ولم يرتض — فيما يظهر — تسمية الأصمعى للمطابقة أو الطباق فسماه « مجاورة الأضداد » وأيضاً لم يرتض تسميته للجناس فسماه المطابق ، واقتدى به قدامة فى هذه التسمية . والحق أنه لا يضيف بكتيبه إلى البحث البلاغى شيئاً يمكن الوقوف عنده ، إنما هى نظرات طائرة وإن شُفعت بالتعريفات والتحديدات ، وهى نظرات تخلو من كل تحليل .

---

(١) دلائل الإعجاز (طبعة مطبعة السعادة) ص ٢٢١ .

(٢) انظر فى ترجمة ثعلب تاريخ بغداد ٥/٢٠٤ وتذكرة الحفاظ ٢/٢١٤ وابن خلكان وشذرات الذهب ٢/٢٠٧ . وإنباه الرواة ١/١٣٨ وما به من مراجع .